وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

سلسلة رواد الحركة الوطنية المصرية
فى التاريخ الحديث
-٢-

عمر مكرم
صوت الحرية ...
ورائد الديمقراطية المصرية

تقديم السفير أيمن القفاص
رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

تأليف : أ.د محمود متولى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة قناة السويس

الاهـــداء

إلى كل من ناضلوا من أجل حرية الإنسان المصرى.

إلى من ضحوا بحياتهم من أجل أوطانهم ..

إلى الذين تصدوا للظلم والطغيان وكل ألوان الإستعمار ..

إلى من ساهموا فى كسر القيود التى كبلت إرادة هذا الشعب أملاً فى غد أفضل.

إلى كل من ساهموا فى بناء هذا الوطن الحبيب ..

إليهم جميعاً كلمة عطاء تقديراً لدورهم وعرفانا بما قدموه لبلادهم ..

فهـرس الدراسـة

•تقديم : ٧

•تمهيد : ٩

•الفصل الأول : العصر الذى عاش فيه السيد عمر مكرم ١٣

•الفصل الثانى : النشأة والميلاد والأفكار والمبادئ ٢٣

•الفصل الثالث : عمر مكرم قائداً لثورة العهد الأعظم سنة ١٧٩٥ م ٣١

•الفصل الرابع : موقف عمر مكرم من الحملة الفرنسية ٤٣

•الفصل الخامس:عمر مكرم وثورة١٢مايو ١٨٠٥م التى أتت بمحمد على والياً على مصر... ٥٥

•الفصل السادس : عمر مكرم .. ومحمد على سنوات الحظوة .. ورحلة المعاناة ٦٥

•الفصل السابــع : حكم التاريخ على عمر مكرم ٨٥

•الخاتمة ٩٧

•المراجع والمصـادر..... ١٠٣

تقديم

تاريخ الأمة هو المرآة التى يرى فيها الفرد ذاته، فتتضح له معالم هويته وهو مصدر إلهامه واعتزازه بنفسه وبوطنه وبتراثه ، وخير معين فى جلاء الحاضر واستشراف المستقبل ، وهو سلاح من أسلحة الصمود فى وجه الكوارث والنكسات.

ولاشك أن الوعى التاريخى بمسيرة نضالنا وملحمة كفاحنا من أجل الحصول على حريتنا واستقلالنا هو أهم مايجب أن تتعرف عليه أجيالنا الشابة كى يؤمنوا أن ما وصلنا إليه كان بالبذل والعطاء والتضحية ، حتى يبقى هذا الوطن – دوماً– حر الإرادة .. لايتحكم فيه دخيل ولايهيمن عليه متسلط .

لكل ذلك تقدم الهيئة العامة للاستعلامات مجموعة دراسات تاريخية علمية نتعرف من خلالها على رموز الوطن الذين قادوا حركة الكفاح الوطنى وقدموا أروع صور البطولة والفداء .

إن الحديث عن رواد الحركة الوطنية فى مصر إنما هو – فى حقيقة الأمر – تمجيد للشعب المصرى قبل رموزه .. فالشعب هو صانع التاريخ لأى أمة من الأمم وتلك حقيقة لاجدال فيها

آمل أن يكون هذا العمل رصيداً للتذكير بالماضى .. وبعثاً لثقافة تاريخية نفتقدها كثيراً فى وقت فيه أجيالنا الشابة فى أمس الحاجة إليها .

السفير/ أيمن القفاص
رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

تمهيـد

حينـما نتحدث عن رواد العمل الـوطنى فى مصـر تبهرنا صور حياتهم الحافلة بـالبطـولة ، والتضحيـة وحينـما نقلب صفحـات التـاريخ تطـالعنـا حقيقـة واضحة وهـى:

" أن مصـر .. ولادة " فكم مـن بطل ولـدته مصـر .. وكم من قـائـد فـذ قـدمته لحـركة الكفـاح الوطنـى .. وكم من مـصلح نادى بـأفكار جـديدة غيـرت الكثـير من المسارات ليس فى مصر وحدها بل لكل من حولها .

ومنذ التاريخ الفرعونى لم ينقطع عطاء مصر فى تقديم نماذج بشرية فى كافة مجالات العلم والمعرفة والفن والسياسة والاقتصاد والإدارة والاجتماع والتاريخ .

وإذا كـانـت مصـر دومـاً فـى حـركـة التـاريـخ تمثل محـوراً أسـاسيـاً لمنطقتهـا، ونمـوذجاً مـثاليـاً لجيرانهـا ... فإن دورهـا فى العـالم القـديم والـوسيـط والحديث والمعـاصر كان فخـراً لبنيهـا - رغم بعض النـكسات التـى أصابت مسيرتهـا- والتى وضح من خلالها أن نهـضة مصـر وتقدمهـا إنما هو فـى معناه الأصيـل نهضة لكل البشر وإثراء للمدنية وللحضارة الإنسانية .

وعـندما سادت مصر الشرق كانت محبوبة من الجميع .. مصر التى كونت أول أمبـراطوريـة فى العـالـم .. وهـى أول دولـة تنـادى بالـتوحيد، وأول مـجتمع ملـوكاً وأفراداً آمن بالبعث والحساب فـى العالم الآخر ... وكانت هـى أول دولة فى العالم توقع معـاهدة سلام مع جيـرانها..ورغم كل أزماتها فـإنها كانـت تؤكد للـجميع أنها سطور مضيئة فى حركة التاريخ .

كانت مصـر هـى التى أعطت البشرية احـدى معجزات الدنيا السبع ... ونقصد بها الهرم الأكبر ... مصر التـى أعطت الدنيا قيثارة السماء ونقصد بها السيدة أم كلثوم .. مصر هـى الـتى أعطت للعالم جمـال عبد الناصر محـرر العالم الثالث من بـراثن الإستعمـار والامبريـالية .. ومـصر محمـد على هـى التى أنقـذت أوروبا من مجاعة القمح فيها فى سنة ١٨٣٢ ... ولاننسى قبل ذلك بقرون أن مصر هى التى طهرت الشرق من تطرف أوروبـا فى حروبها التى أتخذت من الصليب شعاراً لها ، ولكن كان هـدفها الإسـتيلاء على ثـروات الشرق وكنوزه ، ومصـر هـى التـى أنقذت

الحضارة البشرية وعصمت أوروبا من الضياع بتصديها للتتار وانتصارها عليهم فى معركة عين جالوت سنه ١٢٦٠ م .

ومصر بأزهرها الشريف هى التى حملت رسالة الإسلام وكانت أول من رفع راية الثورة ضد جور الخلفاء ... مصر التى قدمتها سطور التاريخ ساحة مضيئة فى النضال ضد الغزاة والكفاح ضد الاستعمار ... هى التى قدمت من دماء وشهداء مايعجز عنه كل البشر .

مصر الحبيبة الغالية التى لم تعرف العنصرية قط ... رفعت لواء المسيحية ضد طغيان الرومان وأباطرتهم .. لم ترضخ يوماً لطاغيه ... ولم تسكت عن ظلم اجتماعى، ولم تبخل عن دفع ضريبة الدم حماية لبيتها ودفاعاً عن جيرانها .

هذه هى مصر التى نقدم اليوم نماذجاً لروادها فى الكفاح الوطنى والنضال الاجتماعى .. لم تمن على أحد ولم تتسلط على شعب ... بل ضحت من أجل الجميع .

كانت الناصح الأمين وقت الشدة والمؤازر الحكيم وقت الأزمة ، والعملاق الكبير وقت الحاجة ... لم تكن أنانية قط خلال حركة تاريخها .. لم تتقوقع على نفسها رغم كل الظروف التى أحاطت بها .. مصر الفرعونية كانت لها إرادتها وشخصيتها .. ومصر المسيحية أصبحت نموذجاً لبناء العقيدة ... أما مصر الإسلامية فقد صارت حامية الرسالة المحمديه .. ومصر المعاصرة غامرت من أجل رفع هامة الشرق ليظل بعيداً عن هيمنة الاستعمار والامبريالية.

هذه الصفحات سطور من تاريخ هؤلاء الذين ولدتهم مصر، وعاشوا من أجلها وضحوا بكل شئ فى سبيلها، ولم يبخلوا عليها بالدم ولا بالمال ولا بالصحة ولا بالوقت ... ووقفوا ضد الظلم والطغيان ودافعوا عن حقوق الإنسان لاقرار العدل والحرية .

ان الطريق الذى خاضه هؤلاء لم يكن مفروشاً بالورود ولم تكن الصعاب هينة.. وخاضوا المعارك من أجل بناء وطنهم مؤكدين أن حرية مصر هى حرية كل البشر، وأن أفكار مصر سوف تقدم التطور والتقدم لكل الأمم، وأن نضالهم

سيكون نموذجاً يحتذى به كل الشعوب ، ألم يكن سعد زغلول ملهما لغاندى (١) ... ألم يكن عبد الناصر سنداً لنكروما (٢) وسيكوتورى ... ألم يكن مصطفى النحاس أستاذاً لنيلسون مانديلا (٣) .

عاشت مصر بقيم ثابتة ومبادئ حية ومُثل عليا، وآمنت أن الإنسان بلا دين جسد بلا روح وأن المواطن بلا حرية حين يتحرك بأمر سادته ومستغليه، وأن المجتمع بلا قانون فوضى تكرس الموت فى ظل الحياة، وأن العدالة إذا إختفت فلا استقرار للمجتمعات .

نأمل أن تكون الحلقة الثانية من هذه الدراسة عن السيد عمر مكرم وصولاً لهدفنا وتحقيقاً لغايتنا ومسعى لا هدف من ورائه إلا إنطلاقنا نحو إعادة الرؤيا فى حاضرنا .. من أجل مستقبلنا .

أ.د. محمود متولى

(١) غاندى زعيم الحركة الوطنية فى الهند والرجل الذى آمن بسياسة اللاعنف وقد أتخذ من أسلوب سعد زغلول فى الدفاع عن استقلال وطنه وهو الاسلوب السلمى المتسم بالتفاوض أساساً لكسب إستقلال الهند من الاستعمار البريطانى الذى كان يريد الجلاء عنها ويعتبرها درة التاج البريطانى .

(٢) ما نكروما زعيم غانا وسيكوتورى زعيم غينيا وكلاهما اتبع سياسة عبد الناصر رفضه الاستعمار والتمسك بالحياة الحرة لوطنيهما وكانا يؤمنان بالحياد الايجابى والوقوف ضد الاحلاف .

(٣) نيلسون مانديلا فهو بطل جنوب أفريقيا الذى سجن لمدة ٢٧ سنة دفاعا عن حرية الزنوج وآمن بسياسة عدم التفرقة العنصرية والوحدة الوطنية واتبع الكثير من مفاهيم مصطفى النحاس فى مواجهة الاغتصاب الاستعمارى لبلاده وتحمل الكثير من حرية مواطنيه .

الفصل الأول
العصر الذى عاش فيه عمر مكرم

يقول الكثير من المؤرخين أن التاريخ ما هو إلا سيرة العظماء ... ولكننا نعتبر أن ذلك مبالغة وإن كانت تحمل بعض الحقيقة فالعلاقة جدلية بين الفرد والمجتمع .. بين الزعيم والشعب .. بين القائد والدولة .

فلا شك أن إغفال الظروف والتغيرات الإجتماعية والإقتصادية يجعل دراسة التاريخ منقوصة ، ولكن استثمار الظرف التاريخى فى المكان والوقت المناسبين يحتاج إلى فرد ذى قدرات عقلية متميزة ، وسمات مزاجية متفردة لها أساس بيولوجى ويحركها –فى اتجاه الهدف –دافع مرتفع إلى الانجاز .

ومما لا شك فيه أن التوجهات الحديثة فى علم النفس التاريخى تهتم بالفرد فى ضوء منظور مضاد لنظرية الرجل العظيم فى دراسة التاريخ ، بالرغم من أن الاهتمام بالفرد يكون موجباً بذلك ...

ولكل ذلك نحن نؤمن أن البطل أو الزعيم ما هو إلا افراز للماضى فى اتصاله بالحاضر، وأنه لا يعد نقطة تحول مفاجئة ولكنه نقطة امتداد طبيعية لما سبقه، ومن هنا لفهم شخصية عمر مكرم لابد وأن ندرس المجتمع الذى عاش فيه وتأثر به فى حركته وتطلعاته .. فتأثير عوامل التنشئة الاجتماعية –النابعة من ظروف المجتمع –على شخصية القائد بالإضافة إلى تحديد بعض المؤشرات الموضوعية المرتبطة بتأثير القائد فيمن حوله هما وجهان لعملة واحدة .

عايش عمر مكرم أربعة عصور أثرت فى تكوينه النفسى وحددت له معالم الطريق الذى يسلكه :-

العصر الأول : هو العصر العثمانى المملوكى .

والعصر الثانى : هو وقوع الغزو الفرنسى للديار المصرية .

والعصر الثالث : هو الصراع بين القوى المتنافسة فى أعقاب خروج الحملة الفرنسية .

عمـر مكـرم

أما العصر الرابع :فهو حكم محمد على لمصر، ووقوع الصدام بين أفكارهما (أفكار عمر مكرم وأفكار محمد على ورغبات وتطلعات كل منهما)

لقد أدرك عمر مكرم وعقل فى مدة حكم على بك الكبير لمصر بين عامى ١٧٦٧ -١٧٧٣ م، ثم رأى الانقلاب الذى أحدثه محمد بك أبو الذهب فى مواجهة سيده بعد أن عجزت الدولة العثمانية عن مواجهة على بك الكبير فى ساحات الشرف والقتال، فلجأت إلى إغواء قائده محمد أبو الذهب وكانت تلك الخيانة سببا فى وفاة على بك الكبير وهو فى قمة مجده وزهو انتصاره ...

ورأى عمر مكرم بعد ذلك ما أصاب مصر من الانتكاس والاضطراب فى أيام مراد بك وابراهيم بك، المملوكان اللذان شغلا منصب شيخ البلاد، الأول للوجه القبلى والثانى للوجه البحرى وعايش ما لحق مصر من تدهور فى حياتها العامة وثروتها ... وأمتد به العمر ليرى الحملة الفرنسية تهز أركان الحياة المصرية من الأعماق، ثم شارك فى أحداث مصر فيما يطلق عليه عهد الظلام، وهى الفترة التى إمتدت من ١٨٠١ حتى ١٨٠٥م ،ثم قام بقيادة الشعب المصرى فى ثورة عارمة خلعت الوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا، ولعب عمر مكرم دورا هاما فى تولية محمد على حكم مصر .

- وقد لاحظ السيد عمر مكرم أن ثالوث الحكم فى مصر هم :

الوالى –الجيش –المماليك

وكانت مدة الوالى لا تتعدى من سنة إلى ثلاث سنوات وذلك خوفا من أن يستقل بالأمور فى مصر نظرا لموقع مصر البعيد عن مقر الدولة العثمانية .. كما أن خيرات مصر وموقعها كانت تغرى بعض الحكام بالاستقلال بها ...

وكان الجيش العثمانى فى مصر يقوم بوظيفتين .. الوظيفة الأولى هى الحرب أى الدفاع عن مصر –أو هذا كان المفروض –أما الوظيفة الثانية للجيش فقد كانت الاشتراك فى الحكم .

فالجيش العثمانى فى مصر امتدت اختصاصاته إلى القطاعين العسكرى والمدنى على السواء .. فكان للعسكريين بجانب الحرب اختصاصات سياسية (إدارية ومالية وتموينية ...) .

أما الهيئة الثالثة فهى العصبيات المملوكية، والذين إستعان بهم العثمانيون لمساعدتهم فى حكم المصريين وذلك كهمزة وصل بين الشعب وبين الحكم العثمانى.. حيث لمس فيهم هذا الحكم عنصرا هاما فى الشئون الحربية الادارية، كما لمسوا فيهم قوة حربية ممتازة رأوا توجيهها لخدمة الدولة العثمانية والدفاع عن البلاد ... فضلا عن أنهم كانوا يعرفون مصر جيدا لطول إقامتهم بها .

وكون العثمانيون أيضاً الديوان الكبير، والذى كان يتكون من قادة فرق جيش الاحتلال العثمانى والأمراء المماليك وكبير القضاة ورجال الإفتاء على المذاهب الأربعة وكبار رجال الدين والدفتردار وهو رئيس ديوان المالية .

وكان الديوان الكبير يجتمع أحياناً عدة مرات فى الأسبوع، كلما دعت الحاجة إلى عقده ، ويترك الباشا رئاسة الديوان لنائبه ويتابع هو جلساته من وراء ستار على غرار ما كان يفعل السلطان فى ديوان الأستانة .

وقد بقى هذا النظام معمولاً به ما بقيت الدولة العثمانية مهيبة الجانب قوية النفوذ والسلطان ... ولكن حدث فى القرن الـ ١٨ أن تدهور النفوذ العثمانى نتيجة ضعف الدولة العثمانية .. وأصبح الباشا فى مصر مسلوب السلطة ... وفى النصف الثانى من القرن الـ ١٨ أصبح الأمراء المماليك هم الهيئة الحاكمة وتسللوا إلى المناصب القيادية فى الحكومة والجيش وتوارى نفوذ العسكريين العثمانيين ... وبذلك تصدع نظام الحكم العثمانى الذى أرسى قواعده السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧م .

وقد عمل الأمراء المماليك على تدعيم مركزهم بالاستكثار من شراء المماليك وتدريبهم تدريبا عسكريا ممتازا وتزويدهم بالأسلحة والخيول الأصيلة واستولوا على معظم الأراضى الزراعية عن طريق نظام الالتزام ... وبلغوا من القوة شأناً بعيداً بحيث أنهم كانوا يمتنعون عن ارسال الجزية إلى السلطان بانتظام ويعزلوا الباشا إذا غضبوا عليه .. وكان الباشا عادة ما يرضخ لقرار العزل ويغادر القلعة مجردا من كل سلطان، ويقيم فى أحد المنازل حتى تتم اجراءات ترحيله، وكان السلطان يصدر مرسوما بتعيين باشا آخر .. أما رجال الحامية العثمانية فقد ضعفت صلاتهم بالأستانة...

وكانت الإدارة المالية فى الحكومة المصرية فى أيدى المماليك ، فكان العسكريون تابعين لهم من الناحية المالية فى وقت عظم فيه نفوذ المماليك فتملقهم جيش الاحتلال العثمانى وجنوده وأصهروا إليهم وأصبحوا من عشيرتهم وأتباعهم ... ومن ناحية أخرى تغلغل المماليك فى مناصب جيش العثمانيين فى مصر حتى أصبح رؤساء الفرق وأغلب ضباطها من المماليك .

وعلى الرغم من أن المماليك قد بلغوا هذا الحد من القوة واستأثروا بالحكم إلا أنهم فشلوا فى الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية .

ويرجع هذا الفشل إلى انقسام الأمراء المماليك بعضهم على بعض وتنافسهم وتناحرهم، حيث عجزوا عن توحيد كلمتهم والخضوع لزعامة أمير منهم يصل بهم وبمصر إلى الاستقلال التام .

وكان إذا ظهر أمير منهم وتجمعت له أسباب القوة كان الأمراء الآخرون المنافسون له هم أول من يثور عليه ويناصبونه العداء السافر وتقع المشاحنات والحروب ... وفى معظم الحالات كان يلقى مثل هذا الأمير مصرعه .. أما إذا نجا من القتل فقد كان يهرب ويعيد تنظيم قواته ويعود إلى محاربة خصومه ... وتستمر الفوضى ...

وكانت الدولة العثمانية حريصة على الايقاع بين الأمراء المماليك وزيادة أسباب الانقسام بينهم .. وأصبحت الظاهرة التى يعيش داخلها السيد عمر مكرم هى المشاحنات والحروب بين أمراء المماليك وما يتعرض له الشعب من نهب وسلب .. وكتابات عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ مصر المعاصر لهذه الأحداث حافلة بالصور الدامية للحروب الداخلية التى كانت تدور فى شوارع القاهرة وفى قرى مصر كلها .

وتتمثل هذه الظاهرة فى حركة على بك الكبير (١٧٦٧ -١٧٧٣ م) الذى كان فى مهده طفلا مسيحيا أسمه يوسف، أختطفته عصابة من قطاع الطرق فأسروه، وباعوه فى سوق الرقيق فى الأستانة إلى أحد كبار تجار الرقيق ويدعى " كرد أحمد " وجىء به سنة ١٧٤٣ إلى الاسكندرية حيث بيع بثمن بخس عبارة عن دراهم معدودة إلى مديرى جمركها الأخوين اليهوديين أسحق ويوسف ... وقد قام هذان اليهوديان باهدائه إلى أحد أصحاب النفوذ فى مصر والذى دفعه فى نفس الطريق الذى سار فيه من سبقه من المماليك .

وأعتنق المملوك الصغير الاسلام وسمى "عليا" وتلقى تعليما "دينيا" وعسكريا، وأظهر براعه فائقة فى ركوب الخيل واستخدام السيف، ثم دارت الأيام وغدا شيخا للبلد وأميرا للحج ...

وأنتهى الأمر بعلى بك أن قام بعزل الباشا العثمانى، وأمتنع عن ارسال الجزية إلى السلطان، وأنفرد بحكم مصر وأرسل حملة عسكرية إلى الحجاز وبادر بخطة جريئة لبعث أمبراطورية مصرية مملوكية وتطورت جيوشه ولم يقتصر نشاطها على الاستيلاء على الحجاز وإنما بعد أن تمكن من فرض سيطرته على كل مصر وزحفه على الحجاز وتحالفه مع شيخ فلسطين القوى الشيخ ظاهرالعمر انطلقت جيوشه نحو الشام وحاول فتح ميناء السويس للملاحة الأوروبية ، وبدأ يقيم بعض الروابط التجارية والحربية مع بعض الدول الأوروبية وعلى رأسها روسيا مما أقلق السلطان العثمانى وبعض حلفائه التقليديين مثل انجلترا .

نجحت جيوش على بك فى الاستيلاء على دمشق سنة ١٧٧١ ولكن دورة الحظ التى حالفت على بك الكبير لم تلبث أن تخلت عنه بسبب المؤامرة المحبوكة التى دبرتها الدولة العثمانية وإتفاقها مع محمد أبو الذهب على خلع على بك وتوليته مكانه ... وبدأت خيوط المؤامرة بانسحاب جيش محمد أبو الذهب من دمشق والذى شعر على بك أنه ليس هناك ما يبرره ، تسبب هذا الانسحاب فى نشوب صراع شخصى بينهما سرعان ما تطور إلى حرب أهلية كلفت على بك ولايته وحياته، حيث أضطرعلى بك لهروب غير مشرف إلى فلسطين كلاجىء عند الشيخ ظاهر العمر فى أبريل ١٧٧٢م، ودار صراع بينه وبين محمد أبو الذهب من أجل السيطرة على فلسطين الجنوبية ... وهزم على بك وانتهى الأمر بموته فى مايو سنة ١٧٧٣م خلال محاولته استعادة سيطرته على مصر (١) .

(١) كانت خيانة محمد أبو الذهب سببا فى القضاء على كل آمال على بك الكبير .. ولم تفد معاونة الشيخ ظاهر العمر أو الكونت الكسيس أولوف –الروسى الحليف –فى تخليصه من منافسه ، خاصة وأن أبو الذهب استطاع أن يؤلب ضده البكوات المماليك ، فكان تارة يصفة بالكفر والإلحاد –لإتصاله بروسيا عدوة السلطان –وتارة أخرى يتهمه بالعمل على اخضاع هذه البلاد حتى يقضى على دين الرسول ويرغم أهلها على إعتناق المسيحية .
وبالقرب من الصالحية ، دارت رحى تلك المعارك الحاسمة التى جرح على بك فى أثنائها ووقع فى أسر محمد بك أبى الذهب ، ثم لم يلبث أن مات بعد ذلك بأيام معدودة فى ٨ مايو ١٧٧٣م .
وأفضى موت على بك إلى استئثار محمد بك أبو الذهب بكل نفوذ وسلطة فى مصر، واعتمد أبو الذهب على تأييد العثمانيين فى الانتقام من الشيخ ظاهر العمر فى معارك حامية انتصر فيها ، ولكنه ما لبث (أى محمد أبو الذهب) أن توفى فجأة فى ٨ يونيو ١٧٧٥ بعد أن دانت له عكا .

وبعد حكم دام سنتين لمحمد أبو الذهب على مصر من ١٧٧٣-١٧٧٥م عاد وضع مصر إلى مجرد ولاية عثمانية، وبدأت عودة الوالى العثمانى ... وعادت الأوضاع إلى سابق عهدها ... الفوضى ... الصراعات .. والفتن ... حوادث السلب والنهب ... إنتشار قطاع الطرق..

وغنى عن البيان أن بكوات المماليك ما كانت تعنيهم شئون مصر إلا بقدر ما يبتزونه من أموال أهلها بشتى الأساليب والطرق ، ولم يهتموا إلا ببناء قصورهم وشراء مماليكهم ، فاختلت الأمور ، وارتبك إقتصاد البلاد وأنتشرت بها المجاعات والأوبئة والأمراض، ومن ثم فإن السؤال الذى يطرح نفسه : ماذا كان موقف الشعب المصرى من الحكم العثمانى المملوكى بصفة عامة ومن جور المماليك وظلمهم بصفة خاصة ؟

والحقيقة أن الفكرة السائدة التى كانت تحمس لها جماهير المصريين ابان العهد العثمانى المملوكى ، هى الفكرة الدينية ، إذ كان المجتمع المصرى فى هذا العهد لايزال من مجتمعات العصور الوسطى الذى يستحوذ الدين فيها على مكانة قوية ، بل كان بمثابة المركز الذى تدور عليه حياة تلك المجتمعات، ولذا كان المصريون ينظرون إلى السلطان العثمانى على أنه " خليفة المسلمين وحامى حمى الاسلام ، كما كانوا ينظرون إلى الدولة العثمانية ذاتها على أنها حامية الاسلام من الفرنج (الكفرة) فى الغرب، ومن الفرس (الشيعة) فى الشرق .

وفى جملة واحدة لم يكن هناك تذمر من التبعية للخلافة العثمانية المسلمة إلا بقدر ما تسىء هذه الخلافة تدبير أمور حياة الناس كالعدل والاعتدال فى جمع الضرائب وإقرار الأمن ... وبعبارة أخرى لم يكن هناك رفض مسبق للحكم الأجنبى ، طالما أنه إسلامى ، وطالما أنه يتبع القيم الاسلامية التى عرفها المجتمع الاسلامى فى تاريخه الطويل .. أى أن الفكرة القومية لم تكن هى المسيطرة على المجتمع المصرى آنذاك بل كانت الفكرة الاسلامية .

ومع ذلك فقد كانت عامة الشعب المصرى فى هذا العهد لا يترددون فى القيام بالثورات، وبذل أقصى ما يستطيعون بذله من ضروب المقاومة متى أشتدت عليهم قسوة معاملة السلطات الحاكمة .

وقد روى الـرحالون والمعاصرون شيئا عن حوادث الثورة ضد السلطة الحاكمة فى ذلك الـوقت ، ومن ذلك ما رواه الرحالـة " سونينى " فى كتـابه "رحلة فى مصر العليا والسفلى " عن ثلاث ثورات قابلته أثناء مروره فى الصعيد . وكانت أحداها فى طهطـا، والثانية فى منفلوط، والثالثة فى أبـى تيج . وفى كل من هذه الثورات الثلاث أعتصم الفلاحون ورفضـوا دفع الضـرائب وقـاومـوا السلطـات الحـاكمـة بالقوة .

عاصـر عمر مكرم ... كل هذه الأحداث ... نقـمة الشعب المصرى وآلامه على حكامه، والتجاء هذا الشعب إلى زعمائه من العلماء ورجال الدين .

وكـانت الأمور تـسير من سـىء إلى أسـوأ وارتبك اقتصـاد البلاد، وأنتشـرت بها المجاعـات والأوبئة والأمـراض وسـاعـد على انتشار الضـنك انخفاض النيل مرات عـديدة، وانصـراف الفلاحين عن العنـاية بـأرضهم وزراعتهم ، عنـدما ظلت غلات هـذه الأرض نهبـاً للبكوات، وشارك عـمر مـكرم الـشعب معـاناتـه وكان عـلى رأس الكثير من الانتفاضات الشعبية عندما تسؤ الأوضاع.

وكـان من أشهـر هذه الثـورات ثورة العهـد الأعظـم التى كـان على رأسهـا عمر مكرم وعبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدى والتى سيأتى ذكرها تفصيليا مع شرح الدور الـذى لعبه عمر مكـرم .. ومعه الكثير من زملائه شـيوخ الأزهـر ورجال الدين .

ولـنا فـى نهايـة هذا الفـصل بعض الـرؤى والتحليلات الخـاصة بـالعصـر الذى عاش فيه عمر مكرم :-

أولاً : كـانت البـيروقـراطيـة السلطـانيـة فـى استنـبول خلال القـرنين السـابع عشر والثامن عشر هى المسئولة عن إصابة الإدارة العثمانية فى مصر بـالضعف، ولم تستطع الـسلطة المركـزية أو ولاة مصر أن يـوقفوا ظهور قـوة العصبيـة المملوكية لتشـارك فى السلطة وفى بعض المواقف يكون لها اليد العليا فى تسيير دفة الأمور.

ثانياً : وبـالنظـر للوضع الجغـرافى والاقتصادى الفـريد الـذى كانـت تتمتع به مصر، فـقد طبق العثمانيـون فيها نظامـاً إدارياً خاصاً –لكن المحصلة

النهائية كانت انقطاع روابط مصر الطبيعية بكل من فلسطين وسوريا ، بالرغم من " قافلة الحج " السنوية التى كان النظام المصرى مسئولاً عن إرسالها إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز واقتصرت مصالح الولاية ، لدرجة كبيرة (على داخل حدودها الطبيعية لمدة تزيد على قرنين ونصف من الحكم العثمانى، قامت فلسطين –التى كانت المعبر البرى الذى يربط مصر بسوريا فى وحدة سياسية - بدور الحاجز الفعال ضد التوسع المصرى شمالاً فى ظل الإدارة العثمانية .

ثالثاً : كانت سياسات القادة المحليين فى القرن الـ ١٨ (على بك الكبير والشيخ ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار فى فلسطين) نوع من إعادة التأكيد على المصالح الاقليمية والسياسية والاقتصادية الطبيعية التى تعرضت للانفصال المصطنع خلال القرون المبكرة من السيادة العثمانية .

رابعاً : استخدم العثمانيون القوة البشرية المملوكية وخبراتها فى الادارات العسكرية والبيروقراطية التى أقاموها فى الولاية، ولم يكن ذلك لصالح مصر بقدر ما كان لصالح المماليك والدولة العثمانية .

خامساً : أدى حكم الدولة العثمانية لمصر إلى عزلة مصر العثمانية المملوكية اقتصادياً وحضارياً، فقد أخذ المجتمع المصرى يتأثر بخصائص الحكم العثمانى وبالذات فيما يتعلق بمفهوم العثمانيين لمسئوليات الدولة واختصاصاتها ، إذ كان هؤلاء يفهمون مسئوليات الدولة على أنها لا تتعدى حدوداً معينة، وهى جمع الضرائب والدفاع عن الولايات ضد الأخطار الخارجية والفصل فى الخصومات بين الناس ، وهى مسئوليات تتطلب إنشاء حاميات للدفاع عن الولايات ، كما تتطلب نظاماً قضائياً وإدارة مالية ، وكانت هذه فى مجموعها تمثل كل أجهزة الدولة ، أما جوانب الحياة الأخرى فى المجتمع من ثقافية وصحية واقتصادية ، فلم تكن تدخل فى اختصاصات الدولة .

عمـر مكـرم

لقد تأثر عمـر مكرم بذلك المناخ الـذى كانت تعيش فيه مـصر، ولم يقف موقفاً سلبياً ... بل سجل دوره التـاريخى منحـازاً إلى شعب مصـر بعيداً عـن أى مغريات من السلطـات الحاكمة .. غير خـاضع أو خـانع لأى تهديد .. ومصلـحة الـشعب المصرى هى جوهـر تفكيره ومحور حركته .

الفصل الثانى
عمر مكرم
" النشأة والميلاد والتربية والافكار"

ولد السيد / عمر مكرم فى مدينة أسيوط جنوب القاهرة بنحو ٣٤٠ كم متراً، ولا يعرف تاريخ ميلاده على وجه التحديد لأن فكرة قيد المواليد فى تلك العصور لم تكن معروفة، وإن كانت بعض الاقلام تذكر أنه ولد حوالى عام ١٧٥٥م أى فى أواخر حكم إبراهيم بك ورضوان بك أشهر زعماء المماليك فى ذلك الحين ، وهما أميران من أمراء المماليك تقاسما السلطة فى مصر مناصفة ، وليس السيد / عمر مكرم هو أول من اختلف المؤرخون فى تاريخ مولده ، فشأنه فى ذلك شأن كثير من عظماء التاريخ وأبطاله الذين ظهروا من بين صفوف العامة ، وبنوا لأنفسهم مجداً يتحدث به الناس فى كل زمان ..

والسيد / عمر مكرم من بيت عريق شريف ، نشأ فى أسرة ينتمى نسبها إلى الامام على كرم الله وجهه ، كما يتضح من حجتين لوقفين له ، أحداهما عام ١٢١٠ هـ والأخرى عام ١٢٣٥ هـ وفيهما نعت بأنه " :-

" فرع الشجرة الزكية ، وطراز العصبة الهاشمية ، الشيخ الامام العلامة الهمام أوحد الأفاضل العظام ، السيد الشريف الطاهر العفيف مولانا سراج الدين عمر أفندى نقيب السادة الاشراف " .

وترعرع السيد عمر فى مدينة أسيوط ، حتى اذا نال قسطاً من التعليم على أسلوب زمانه ، انتقل إلى القاهرة والتحق بالازهر الشريف ، وفيه تخرج ، ولكنه لم يشتغل بالتدريس على عادة شيوخ العصر ، بل انصرف إلى الشئون العامة ومشاركة الناس فى حياتهم والدفاع عنهم وعن حرياتهم ، وكان السيد عمر من غير شك كبير القلب واسع المواهب ، ثابت الرأى ، عظيم الجنان محبوباً من الخاصة والعامة ، وليس من شك فى أن هذه المواهب جعلت منه شخصية كبيرة يحسب لها حسابها، وتوزن أقوالها فى ميزان المشورة والرأى، وفى الوقت الذى

شب فيه السيد / عمر مكرم عن طوقه ، وأخذ يسرع الخطا نحو الشباب ، كانت حياة المماليك قد بلغت الدرك الاسفل من الانحطاط وتميز عهدهم بأنواع من الظلم والفوضى والاضطراب لم تشهد البلاد شبهاً لها من قبل .

وقد أضطرت الدولة العثمانية إلى ان تبعث عام ١٧٨٦م حملة قوية بقيادة القائد التركى حسن باشا الجزائرلى لتأديب ابراهيم بك ومراد بك أميرى مصر على ما إقترفاه فى حق هذه الأمة ، وعاد الجزائرلى باشا إلى بلاده بعد ان نجح فى مهمته وبعد ان انتزع الحكم من أيدى الطاغيتين اللذين فرا إلى الصعيد.

وفى هذا الوقت –أى حوالى عام ١٧٩١م بدأ نجم السيد عمر مكرم يعلو فى ميدان السياسة، فقد لجأ اليه ابراهيم ومراد فى اثناء فرارهما بالصعيد ، ليكون رسولهما فى مفاوضات الدولة العثمانية من خلال الحكومة القائمة فى القاهرة والتفاهم معها على عودتهما والمشاركة فى الحكم من جديد .

ونجح السيد / عمر مكرم فى تأدية الرسالة ومكن العودة للأميرين وقام بهذا الأمر خدمة لمراد بك وابراهيم بك آملاً أن يكونا قد استوعبا الدرس، وان يكونا أقرب إلى النظر فى سياستهما والاهتمام بقضايا الشعب ..كما ان السيد عمر مكرم نظرإلى تلك الخدمة على اساس انه كان يؤدى خدمة للمصريين قبلهما.

وكان من الطبيعى ان يعترف مراد بك وابراهيم بك بالجميل ، وأن يكافئا وقفته معهما يشد أزرهما فى الوقت العصيب، فأسندا إليه نقابة الاشراف عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م وذلك فى أعقاب وفاة رئيسها السيد محمد البكرى (١) .

وكانت هذه الوظيفة الجديدة نقطة تحول فى حياة عمر مكرم .. فقد ارتفع شأنه بين العامة ... وزاد من قدره بين رجالات الدولة .. وقد سار عمر مكرم خلال رئاسة لنقابة الاشراف سيرة حسنة ، وكان فيها مثال الرجل الطاهر الشريف ولنا هنا بعض الملاحظات :-

(١) كانت وظيفة نقيب الأشراف فى مصر محصورة فى أسرتين :- أسرة البكرى وأسرة السادات وكان لصاحب هذا المنصب صوت مسموع فى شئون البلاد السياسية والاجتماعية والقول الفصل فى مواجهة الازمات والمشاكل الحيوية .

الأولى :- أن الصداقة بينه وبين الأميرين لم تمنعه من التصدى لها فى بعض الأحيان أو الوقوف على الحياد فى بعض المسائل الشائكة التى كان يعجز عن أن يكون الحل فيها لصالح الجماهير .

الثانية:-أن هذه الصداقة وهذا الحياد لم يحولا بينه وبين الاسراع لنصرة الشعب والدفاع عنه وعن حقوقه كلما دعا الامر إلى ذلك .

وكان له عام ١٢٠٩هـ - ١٧٩٥ م فضل الاشتراك فى كتابة وثيقة سياسية كبرى فى اعقاب الثورة التى قامت فى ذلك العام (سياتى تفصليا دور عمر مكرم فى هذه الثورة فى فصل لاحق) والتى تعهد فيها مراد بك وابراهيم بك والأمراء بالعدول والرجوع عن المظالم والقيام بالواجبات التى يفرضها القانون والعرف .

وحتى قدوم الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م عاش السيد عمر مكرم سنوات حياته رسول سلام ووئام بين الناس وبين الحكام والمحكومين بعيداً عن الحكام قريباً من الشعب برأيه ومشورته لإحقاق الحق ورد المظالم .

وعمر مكرم هو أحد الزعامات القليلة فى تاريخ مصر التى آمنت بالفكرة الديمقراطية فى وقت مبكر .. وأن صالح أى مجتمع يريد لنفسه التطور هو أن يحكم نفسه بنفسه وأن لا سلطة يجب أن تعلو على سلطته وأنه يجب أن يكون صاحب قراره فى تشكيل مستقبله .

هو زعيم جمع فى شخصيته سمات الزعامه الشعبية بالحكمه والمنطق وعدم التهور وناضل فى سبيل ما كان يؤمن به من أفكار حرة .. جاءت فى أفضل الرسالات السماوية وهى الرسالة المحمدية .. كان عالماً كبيراً من علماء الدين ومتفقها فى اللغة العربية ولديه قدرة كبيرة على الاقناع وإدارة الحوار .

ولولا أن شخصية محمد على كان لها الدور البارز فى بناء مصر الحديثة لما نسيه الكثير من المؤرخين ..ولكان لدوره أثر كبير فى تكريس مفهوم حكم الشعب وقيم الديمقراطية فى المجتمع المصرى .

فهو أول من قاد ثورة شعبية فى تاريخ مصر العثمانية ، وجعل الشعب يختار

عمـر مكـرم

الـوالـى الـذى لم يفـرضه عليه الـسلطـان العثمانـى ... وتلك أول سـابقة فـى تاريخ الدولـة العثمانية أن تقوم بلـد تحت حكمها باختيار حـاكمها دون أن يكون للسلطان يد فيها .

عرف عـن عمر مكرم أنه نشـأ فـى بيئة ميسورة .. وعـرف عنه فى سن الشباب الورع والتقوى وسمو الخلق ورحابة العقل وخشية الله والضمير الإنسانى .

آمن عمر مكرم بمجموعة من القيم والأفكار يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - أن بيتا ينقسم على ذاته لايستطيع الاستمرار فى البقاء .

٢ - إن الحـريـة هـى تحمل المسئوليـة مـن أجل الصـالح العـام والمسلم نـاقص الحرية هو مسلم منقوص التوحيد والايمان .

٣ - تحرير الإنسان هو تحرير لعقله وضميره وإرادته ورفع لشأنه لأن العبودية والاستغلال تحطيم لكرامة الإنسـان وإطفـاء سـراج ابـداعه .. وتكبيل لضميره .

٤ - ليس حراً من يقـال له خذ حقوقك فى كل شئ مـاعدا الحرية .. مثل حق الحيـاة وحق التعليم وحق العمل .. لأن كل هذه الحقـوق ليسـت بديلاً قط له عن حق الحرية .

٥ - إن الحريـة قيمـة تمارس لا مجـرد شعار يـرفع ولن تكون هناك حـرية لأى إنسـان إلا من خلال تطبيق شريعـة الله وفى ضـوء المنهج الإنسـانـى الذى نادى به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٦ - إن الحـرية حق لايقهره الإستبـداد .. وأن الحياة نعمـة تستحق أن نحـياها بكل حرية .. وعندما نتنفس بحرية نتقدم .

٧ - المعـرفـة هـى أقصـر الطـرق لـتحقيق الحـريـة .. فـالجهل هـو العـدو الأول للإنسان .

٨ - الحاكم لايحكم بمفرده ، بل يحيط نفسه بمجموعة من المستشارين يأخذ بـرأيهم ومصلحتهم وذلك مرتبط بما إذا كانوا امناء وذوى ضمائر حية من عدمه .

وقد لقب المؤرخ المصرى " عبد الرحمن الجبرتى " عمر مكرم أفندى وليس شيخاً كعادة الناس أن يلقبوا بشيوخ الأزهر وذلك بسبب نهجه نهجاً وطنياً .

ولد فى أسيوط عاصمة الصعيد ثم انتقل إلى القاهرة .. وكان الاتراك يتقربون إلى الأشراف تقرباً للنبى(صلعم) ولذا لم يشعر فى صغره أو شبابه بأى ظلم مما يتذوقه المصريون على أيدى حكامهم من الأتراك .

نشأ إجتماعياً من صغره وكان ممن يدفع الضرائب عن بعض الأسر المصرية التى تعجز عن سدادها للمماليك أو الأتراك مما رفع قدره بين الناس .

وقد سافر للقاهرة ليلتحق بالدراسة فى الأزهر .. فترك مدينة صغيرة محدودة الحيوية ريفية السمات إلى القاهرة أضخم مدينة فى بلاده وأعظم مدن العالم الذى كان يعرفه وكان قد حفظ القرآن الكريم قبل توجهه للحاق بالأزهر وأضافت له دراسته فى الأزهر القدرة على الحديث والنقاش والخطابة ، وهيأت له امتلاك وسائل الاقناع والتأثير التى تشد الناس وتجذب الاسماع إليه .

وبهذه الأسلحة مع سلاح نسبه الشريف إستطاع أن يدخل فى غمار المجتمع ويصعد سريعاً فى سلم الرقى به وبهر الناس بعلمه وسعة أفقه .

وقد تأثر عمر مكرم وهو طفل بما وقعت عليه عيناه على بعض الفلاحين والسياط تلهب ظهورهم بسبب عجزهم عن دفع الضرائب الباهظة أو إذا تأخروا عن دفعها ولاشك أن ظلم الحكام الأتراك والمماليك قد أثر على كافة تفكيره .

أحب عمر مكرم دراسة الفلسفة والسياسة والتاريخ والاجتماع مما كان له الأثر الأكبر فى درايته بشئون المجتمع المصرى إلى جانب الخروج على مألوف العصر بالنسبة لشيوخ الأزهر .. ومع ذلك فقد كان اهتمامه بالفقه والدين والشريعة لايقل عن اهتمامه ببقية العلوم الإنسانية .. وقد إقتنى لنفسه مكتبة كبيرة لايزال جانب منها محفوظاً فى دار الكتب المصرية وله سجل خاص بها .

عرف عن عمر مكرم قدرته الفائقة على الحوار مع الجماهير مما حببهم فيه وكان يحب مصر وأهلها بشكل لامثيل له وكان من غير شك يرتسم بترسم خطى

السلف الصالح وينهج نهج السابقين فى الإسلام مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ويعتبر جهادهم فى سبيل العقيدة مثلاً أعلى لابد وأن يحتذى .

وكان للسيد عمر مكرم نفوذ فعال لدى الدوائر الحاكمه سواء الأتراك أو المماليك وقد عظم نفوذه فى السنوات الخمس التى سبقت قدوم الحملة الفرنسية .. وسوف يذكر التاريخ إلى الأبد أن الفضل يعود إلى عمر مكرم فى أنه هو الذى أجلس محمد على على عرش مصر .. وكان فى السنوات الأولى من حكمه أحد أركان نظامه الأساسى.

وقد بلغ من مكانته أن محمد على باشا لما اعتزم أن يجرد جيشاً لمحاربة محمد بك الألفى فى الصعيد فى أبريل سنة ١٨٠٦م - صفر سنة ١٢٢١هـ عرض عليه أن يستخلفه فينوب عنه ويكون قائماً مدة غيابه عن القاهرة.. ولكن السيد عمر مكرم لم يقبل ... ولم يذكر الجبرتى سبب إمتناعه ولكن إذا صح مايقوله من أنه " تبين أنها إبهامات لا أصل لها".. فيكون الامتناع راجعاً إلى أن عمر مكرم شعر بأن العرض لم يكن إلا ضرباً من ضروب المجاملة والتكريم ..

وقد يكون السبب فى ذلك أن عمر مكرم كان زاهداً فى مناصب السلطة ، ويخشى أن يتهمه حساده وكانوا كثيرين ويشعرون بالغيرة منه أنه يسعى إلى الجاه وكانوا يتهمونه بأنه لايعطى إلا ليأخذ ...

وكان عمر مكرم يجعل من جهاده ساحة الوطن ومن أجل العامة وصالح الناس .. ويرضى بمكانته فى نفوس الشعب ويكفيه أنه فى الاجتماعات والاحتفالات العامة يتقدم المدعون الذين كانوا يخلون له صدر المجالس طواعيه واختياراً وكانت جلسته جنباً إلى جنب مع محمد على ... ويكفى أن نقرأ بعض ماذكره الجبرتى عنه فى المناسبات المختلفة لنعرف إلى أى حد بلغ نفوذه ومكانته .

ولا نزاع أن الزعامة الشعبية قد أكتسبت نفوذاً معنوياً كبيراً لمكانة السيد عمر مكرم وشخصيته ومهابته ، فهو بحكم رئاسته لهذه الزعامة كان يسبغ عليها من شخصيته الكبيرة مما يجعلها نافذة الكلمة مهابه الجانب ومحترمة المقام .

لم تكن هذه المكانة لتخفى على زعماء المماليك أيضاً .. فقد لجأ إليه محمد بك الألفى وطلب منه التوسط بينه وبين محمد على وشفاعته لديه ليصفوا له وللأمراء المماليك وأبدوا إستعدادهم بالاستكانة فى جهة يقيمون فيها ويستغلونها بعيداً عن القاهرة ، ولكن محمد على كان أبعد نظراً من أن يطمئن لخصومه الألداء فعادت الحرب بينهما وانسحب الألفى بك إلى الفيوم بعد العدة للقتال ، وبدأ محمد على يستعد للانقضاض عليهم بعد أن أقنع عمر مكرم بأن الصدام مع المماليك حتمى وأن صلاح مصر لن يكون أبداً طالما المماليك لهم نفوذ .

وقبل أن ندخل فى مواقف عمر مكرم فى الجهاد وشرحها علينا أن نذكر أن عمر مكرم عاش حياته فى مواجهة الظلم ووقف ضد كل صوره .. وأنه بحق أول من وضع خطوات الممارسة الفعلية للديمقراطية فى مصر .. وحاول دائماً التأكيد على سيادة سلطة الشعب .

الفصل الثالث
عمر مكرم قائد ثورة ١٧٩٥م
ضد العثمانيين والمماليك

إن الملحمة التاريخية التى صنعها شعب مصر العظيم بنضاله البطولى والاسطورى فى ذات الوقت ضد المستعمرين الاجانب وعملائهم والذى توج انتصاره بتحرير إرادته بقيام ثورة ٢٣ يوليو درة الثورات المصرية هى فخر لكل المصريين .

ولقد أثبت الشعب المصرى ان المجتمعات التى يطول عليها ليل الظلم وتمتد بها الحياة ، بالبطش والتسلط والحرمان تتفجر فيها بالضرورة طاقات الثوريين من الاحرار لتتولى مسئوليتها الوطنية فى أمتها وشعبها وتمضى فى نضالها إلى أن تقطع يد من يخنقها وتبتر رأس من يسجنها خلف اسوار الذل والمهانة والعار ، والشخصية المصرية تتفق وتختلف مع الشخصية الانسانية فى بعض السمات ويظهر ذلك الاتفاق فى عدة نقاط هى :-

١- ان جماهير مصر أسوة بكل جماهير المجتمعات الأخرى تثور فى حالة الاحساس بالظلم .
٢- ان مصر تثور فى حالة الاعتداء على ارضها أو كرامتها أو عرضها أو المساس بعقيدتها .
٣- أن الشعب المصرى عند ثورته يستهين بكل التضحيات فى سبيل تحقيق أهدافه والوصول إلى آماله.
٤- ان الشعب المصرى يثور عند أى هزيمة عسكرية تلحق بجيشه.
٥- ان الشعب المصرى أسرع ثورة عند الاحساس بأزمة اقتصادية تطحنه أو طبقة غنية تسرق قوته أو حاكم ظالم يعتدى على حريته.

وكل هذه السمات تشارك فيها شعوب العالم الشعب المصرى .. أما أوجه الاختلاف فى الشخصية المصرية فانها تتضح فيما يلى :-

عمـر مكـرم

١- الشعب المصرى صبور يتحمل الكثير من المآسى والمعاناة حتى يفيض به الكيل وعندئذ يصبح كالرعد فى ثورته لايبقى ولايذر .

٢- الشعب المصرى بطبيعته يكره الظلم ويأبى الضيم ولكنه يظل فى سلبية تجاه الأحداث وليس من السهل تحريك عقله ولكن من السهل السيطرة على عاطفته .

٣- الشعب المصرى يكره العنف ويحب السلام إلى حد الاستكانة .. إلى درجة ان يظن الكثيرون انه فى مرحلة الموت أو اقرب ولكنه فى الواقع يكون فى مرحلة الاعداد والترقب ليثور فى الوقت المناسب .

٤- الشعب المصرى يحب السلطة الأبوية ويحب أن يؤله حاكمه ويترك مقاديره بين يديه ، ولكنه لايجعله يفر من الحساب إذا تهاون فى حمل المسئولية أو قصر فى أداء الامانة .

٥- مخطئ من يظن ان الشعب المصرى من السهل قيادته والسيطرة عليه فلا زالت بذور الفرعونية موجودة داخلنا تدفعنا بمجرد تملك السلطة ان نتسيد بعضنا فوق بعض .. ورحم الله المحامى الفريد مكرم عبيد أحد زعامات مصر غير المتعصبين والذى قال كلمته المشهورة :-

" أخشى بعد أن يخرج المحتل الاجنبى من بلادنا من احتلال المصرى للمصرى"

٦- الشعب المصرى يحب الحرية ولكنه فى بعض الاحيان لايعرف حدودها ، ويعشق الديمقراطية ولكنه لايقدر ضوابطها .. ودوما جماهير الشعب المصرى تحلم أكثر من واقعها ، وتتطلع إلى أكثر من إمكانياتها ، وطموحاتها تفوق الكثير من قدراتها .

٧- لازالت العقيدة الدينية فوق كل اعتبار لدى جماهير الشعب المصرى ، وبالتالى فإن محاولة بناء الدولة العلمانية فى مصر للوصول إلى التطور الحضارى ، المطلوب فى حاجة إلى فهم جديد ورؤيا عصرية للمفاهيم التربوية الدينية التى تزرع فى داخلنا من الصغر، وتصبح المعادلة هى كيف نحتفظ بالاصالة ونحن نلهث وراء المعاصرة .

٨- لايزال المثقفون المصـريون بعيدين عـن دراسة قاع المدينـة ، والكثير منهم يعيش بـرغبته - والبـعض قد يـكون مجبـراً على ذلك - فـى أبراج عـاجية بعيداً عن مشكلات الجمـاهير ، وبالتـالى فان سلبيـة المثقفين أو تطلعاتهم الطبقية فـى أحيان اخرى أو تعاليهم فى أحيان ثـالثة عوامل معوقة لتطور المجتمع المصرى .

٩- لازلنـا نـواجه فـى مجتمعنـا القصـور فـى الانتمـاء الـوطنـى والاحسـاس بـالتفـاعل مـن أجل مصـر ، وهـذا ولاشك يعـرقل مسيـرتنـا ويجعلنـا غيـر راغبـين فى العطاء إلا بعد قبض الثمن مقدماً وعندما نتقاضى الثمن نتهاون فى أداء الواجب المطلوب منا .

والاغتراب فـى الشخصية المصـرية مشكلة حقيقية لابد من الموضـوعية لايجاد حل لها من أجل بناء مصر .

١٠- الشخصية المصرية لاتعـرف الوسطية ، كما هـو دارج فى عقول الكثيرين، فالمفروض فينـا الوسطية ولكـن نحن إما مفرطين فـى التفاؤل أو مفرطين فى التشاؤم .. ونحن إما ندافع عن استقلالنا .. وإما نبنى امبراطورية لنا ونحن لانـرضى بـدور متـواضع نلعبه . ولكـن نريـد دوما دور الـزعامـة فى محيطنا .

وليس سهلاً علينـا ان نستمـر هكذا .. فذلك قـد يجعل الآخـرين عـدوانيين نحـونا أو قـد يجعلنـا فى إحبـاط مستمـر لإننـا نشـعر بعقـدة الذنـب فى إننـا غيـر قادرين على الوصول إلى أهدافنا .

ثورة العهد الأعظم سنة ١٧٩٥م
ودور السيد / عمر مكرم

منذ سقوط مصر تحت الحكم العثمانى ، كان واضحاً ان الأزهر هو ملاذ المظلومين ونقطة تجمع أكثر حركات الاحتجاج على الظلم ، وكان بعض العلماء من المصريين يقومون بدور واضح فى الحياة العامة ، فكان يؤخذ رأيهم بصفة استشارية وقد يلجأ إليهم الباشا العثمانى والمماليك للتوسط فيما بينهم من الخلافات الداخلية أو لتهدئة خواطر الشعب المظلوم .. كما كان أبناء الشعب يلجأون اليهم للتوسط بينهم وبين الحكومة لرفع المظالم ولقيادتهم فى حركات الأحتجاج .

وتعتبر ثورة سنة ١٧٩٥م من أنضج صفحات المقاومة الشعبية للحكم التركى المملوكى ، وهى حركة احتجاج قوية أرغمت الوالى والمماليك على كتابة وثيقة أو حجة تبين الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية .. وإذا كان واضحاً انه لاتوجد علة واحدة لتعليل قيام أى ثورة، فإن ذلك ينطبق على ثورة ١٧٩٥م .

وإذا كان المعنى الحقيقى وراء قيام أى ثورة هو الوصول إلى الأفضل وتغيير الواقع لتحقيق آمال عجز النظام القائم عن القيام بها .

والثورات لابد وأن تصبو فى النهاية إلى القضاء على الظلم وبناء العدل، والانطلاق بكل القوى المؤيدة لها لحماية المستقبل لصالح الاغلبية والتصدى لمحاولات القلة الانحراف بطريق الثورة حتى لو كانت من هذه القلة بعض الذين قادوا الثورة .

لم تكن ثورة سنة ١٧٩٥ ثورة من فراغ ، بل كانت ثورة تهدف إلى تحديد صلاحيات الحاكم العثمانى وضمن ذلك ضمن جوقته من المماليك .. وكان السبب الرئيسى لها هو تدهور الحالة الاقتصادية والاجتماعية على عهد مراد بك وابراهيم بك حاكمى مصر كشيوخ للبلد فى ذلك الحين ، ولاشك انه سبق هذه الثورة مايمكن أن يسمى الفوضى الاجتماعية التى كان يعيش فيها المصريون حيث لم يكن هناك أمن أو أمان لأى مواطن على روحه أو عرضه أو ماله .

وكان الغلاء سمة ظاهرة لهذا العصر .. وتكالبت عوامل الطبيعة مع ظلم البشر لتجعل الثورة حتمية الميلاد .. فقد تصادف انخفاض النيل فأجدبت الأرض وكانت الفتن المستمرة والصراعات المحلية سبباً فى انقسام البلاد وانتشار أتباع المماليك لنهب الأموال من القرى وإحداث الكثير من المظالم حتى أرهقوا الفلاحين فضاقت بهم الحياة وأشتد كربهم وهربوا من بلادهم ، بل ولم يقتصر الأمر على طبقة العامة .. إذ أن مستورى الناس (أى أولئك الأغنياء من أفراد الطبقة الوسطى وهو تعبير كان يستخدمه المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى مؤرخ تلك الفترة) ... حتى هؤلاء المستورين ... اضطروا إلى بيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم .. بل لقد وصل الأمر أن إمتدت أيدى الظلمه إلى المواريث .فإذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو لم يكن.

باختصار لقد حل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء .. وفسدت النيات وتغيرت القلوب ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد بين الناس بعضهم لبعض .

أسباب الثورة ودوافعها :

أولاً : سوء الأحوال المعيشية وغلاء الأسعار وندرة وجود الغذاء .

ثانياً: انهيار القيم وانحطاط الاخلاق والاعتداء على الأعراض ومصادرة الأملاك من جانب المماليك والجند العثمانيين.

ثالثاً : كثرة الضرائب وازدياد المظالم وهضم حقوق الناس .

رابعاً : إنهيار النظام الحاكم وانتشار الفساد والرشوة وسوء الإدارة وسيطرة العصابات المملوكية وانتشار قطاع الطرق وفقدان الأمن والأمان .

بداية أحداث الثورة :

كانت البداية فى بلبيس بالشرقية حيث فرض أتباع محمد بك الألفى أحد زعامات المماليك الكثير من الضرائب والاتاوات على بعض التجار والأغنياء والفلاحين ، ومن أجل تحصيلها أمر أتباعه باستخدام كل أساليب التعذيب خاصة وان هذه الضرائب كانت فوق طاقة الأهالى ولم يكن باستطاعتهم سدادها ، ومن

ثم بدأ الأهالى يتجمعون فى شكل عصيان وصمموا على الزحف نحو القاهرة للجوء إلى الزعامات الدينية فى الأزهر وسارت جموع الشعب على الأقدام من بلبيس إلى القاهرة قاصدين الجامع الأزهر وهناك تقابلوا مع الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وقام الأهالى بمطالبتهم برفع الظلم الواقع عليهم واستغاثوا بكل القيادات الشعبية الدينية .

وكان الأزهر الشريف فى ذلك الحين ومنذ زمن طويل هو قنديل الحرية وحامى الشعب ، والقلعة الحصينة التى تتذرع بها الجماهير طلباً للخلاص من ظلم حكامها ، لذلك فإن السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى جمعاً مشايخ الأزهر وأمراً باغلاق أبوابه ، وكان ذلك يعنى التمرد ويوجهان المشايخ لمخاطبة إبراهيم بك ومراد بك .

وتوجهت الزعامة الدينية إلى كل من الزعيمين المملوكين مراد بك وإبراهيم بك اللذان لم يحلا الموقف ولم يبديا شيئاً من الاستعداد لإزالة أسباب الثورة ، وهنا نزل المشايخ والعلماء ونقيب الأشراف إلى الناس وأمروهم بغلق الحوانيت والأسواق .. فتجمع معهم خلق كثير وتبعهم الجماهير التى كانت تضيق ذرعاً بظلم المماليك وتوجه الجميع إلى بيت الشيخ أبى الأنوار السادات الذى كان قريباً من مقر إقامة إبراهيم بك والذى بدأ يخشى بوادر هذه التجمعات ومن ثم أرسل إليهم أحد أعوانه وأسمه " أيوب بك " والذى سألهم عن مطالبهم ومقاصدهم من وراء هذا التمرد فقالوا له :

نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وإبطال الحوادث (يقصدون السلب والنهب من جانب عساكر المماليك) ،ونريد إلغاء المكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها (يقصدون الضرائب والإتاوات والفرد التى كانوا يفرضونها بدون وجه حق).

ولكن أيوب بك الدفتردار مندوب إبراهيم بك رد عليهم :

لايمكن الإجابة إلى هذا كله .. لأننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات .. فقيل له هذا ليس بعذر عند الله .. ولا عند الناس .. لأنه لايمكن أن يعيش الحاكم فى بحبوحة من العيش ويعيش الناس فى فقر وإملاق.

ورد الشيخ الشرقاوى :

هل من المعقول أن تتمتعوا وغيركم يتقطعوا؟

ورد عمر مكرم على أيوب بك :

لو طلبتم مافى طاقتنا لدفعنا ولكنكم تجبرون الناس على الثورة .. والناس فى ضيق من أفعالكم .

ولم يلبث أن قال الشيخ السادات :

" ويل للحاكم من شعبه ، ان كان هو وحده المستريح " وأكمل الشيخ السادات : ما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك .. وهل لا يكون الأمير أميراً إلا بكثرة مايملكه أو بكثرة ماينفقه .

وخاف أيوب من سوء العاقبة ان استمر فى المجادلة والمناقشة .. فقال:

" ماعلى الرسول إلا البلاغ .. وسوف أبلغ وأعود لكم "

ولكنه لم يعد قط وهنا انفض المجلس .. وأستمرت الزعامات الشعبية والناس فى شكل اعتصام وبدأوا يستعدون لاقامة المتاريس وعمل الكور من النار وجمع النبابيت والعصى والمدى وبدأ الخطباء يحمسون الناس ضد الظلم والضرائب الجائرة ... وأصبح الموقف على وشك الانفجار .

هنا رأى ابراهيم بك أنه ليس من المصلحة مواجهة هذه الثورة وانما لابد من ملاينة الموقف .. فأرسل ابراهيم بك إلى زعامات الثورة من المشايخ يقول لهم أنه معهم وانه لايرضى بما يرتكبه اتباع محمد بك الالفى او اتباع مراد بك .. وكانت قد حصلت بعض الاتصالات بين ابراهيم بك ومراد بك ليقول له ان المصلحة تقتضى ارضاء العامة والمشايخ خاصة وانهم فى جمع كبير من الناس وعلى رأسهم نقيب الاشراف السيد عمر مكرم وان الحماس يطغى على الجميع .. وانه يخشى تفاقم الامور .. ومن هنا اقتنع مراد بك بضرورة مسايرة الموقف وعدم التصدى لجموع الشعب وزعاماته .

وفعلاً أرسل مراد بك بعض الرسل إلى الازهر ليأتوا له ببعض المشايخ مندوبين ليتفاهم معهم فى مطالب العامة .. فذهب اليه بعض مشايخ الأزهر

ومعهم السيد عمر مكرم .. ذهبوا إلى منـزل مراد بك بالجيـزة فلاطفهم والتمس منهم السعى فى الصلح ورجعوا من عنده فى حالة رضاء تام ..

وفـى اليوم الثالث حضر الوالى العثمانى وذهب إلى منزل ابراهيم بك حيث اجتمع بالأمراء هنـاك ، وتقابل للمـرة الاولى فى منـزل ابراهيم بك مع زعـماء الثورة وهم السيـد عمـر مكرم نقيب الاشـراف ، والـشيخ عبـد الله الشـرقـاوى شيخ الجـامع الازهـر والشيخ محمد البكرى والشيخ أبو الانوار السادات والشيخ محمد الامير .

وخـرج العامة من ورائهم فـى كتل شعبية خطيـرة وكبيرة خـوفاً من أن يغدر بهم المماليك ولكن السيد عمر مكرم طلب منهم الانتظار والاستعداد وقال لهم :-

"ان لم نـعود بـعد سـاعتين علـى الاكثـر فعليكم القيـام بمـا تـرونـه .. وكان عـمر مكـرم يـرى بحسه أن المـماليك فـى خشيـة علـى أنفسهم وعلـى ممتلكاتهم ، وان المفـاوضات لن تستمر طويلاً .. ولكن طال الحديث فـى اجتماع الزعامات الشعبية وأمـراء المـماليك والـوالـى العثمـانـى ، وتشـدد زعمـاء الـشعب فـى عـرض مطـالب العامة .

وكاد أن ينفلت زمام الأمر لأن الشعب أخـذ يهتف اللّه أكبر .. اللّه أكبر وساروا فى كتل شعبـية نحو مـنـزل ابراهـيم بك .. مما جعل هـذا ان يطلب عمـر مكرم من مراد بك والوالى ضرورة الموافقة على طلب الزعامات الشعبية .

وأنتهـى الاجتماع علـى أسـاس أن أمراء المـماليك قد تـابوا ورجعوا والتـزموا بما اشترطه العلماء عليهم وتم الصلح بينهم بالشروط التالية:-

١- يدفع أمـراء المماليك مـا كانوا قـد اغتصبوه مـن الشعب ومقداره سـبعمائة وخمسين كيساً ، حيث أمر المشايخ بتوزيعها على أهل بلبيس وبعض فقراء القاهرة .

٢- أن يرسـلوا غلال الحـرمين الـتى كـانوا قـد امتنعوا عـن ارسـالـها ويعيـدوا صـرف غلات الشون وأمـوال الرزقة الـتى كانـوا قد استـولوا عليهـا .. كما وافقـوا علـى ارسـال خـادم الحـرمين والعـوائـد المقـررة لأهل الحجـاز التـى كانت تتكفل مصر الإسلامية بها بشكل دائم .

٣- أن يبطلوا المكوس الجديدة وألا يفرضوا أى ضرائب فُرضت بدون وجه حق وبدون استشارة العلماء وزعامات الشعب .

٤- أن يكفوا اتباعهم عن إمتداد أيديهم إلى أموال الناس .

٥- أن يسيروا فى الناس سيرة حسنة .

وحتى يضمنوا تنفيذ كل هذه الشروط ، فقط طلب الزعماء من القاضى الذى كان حاضراً بالمجلس كتابة حجة عليهم بذلك تحتوى كل الشروط السابقة ووافق عليها الباشا وختم عليها ابراهيم بك بخاتمه دلالة على رضائه على ذلك .. ولما لم يكن مراد بك حاضراً للإجتماع فقد حرص السيد عمر مكرم على ضرورة أن يقوم بتوقيعها ولذا أقترح إرسال هذه الحجة اليه للتوقيع عليها فختمها بخاتمه وتعهد بتنفيذ ماجاء بها .

وهكذا إنتهت الثورة .. بعد أن حققت أهدافها وعاد المشايخ إلى الجماهير والعامة لطمأنتهم .

العهد والميثاق وتسجيله :

ولقد كان من نتيجة تأخر المفاوضات أن قلقت العامة فبدأت تتوافد على بيت ابراهيم بك بالجيزة وبدأوا يقيمون المتاريس وأصواتهم تعلوا مطالبة بالعدل ورفع المظالم ولولا خروج الشيخ السادات والسيد عمر مكرم لتهدئتهم وليبشروهم بالأتفاق .. هنا هتفت العامة بحياة زعمائهم ، وما إن وُقِعت الحجة بخاتم ابراهيم بك ومراد بك ووقع عليها الباشا العثمانى الوالى بنفسه أمام زعامات الشعب حتى رجع المشايخ ومن حولهم العامة وخرج الناس يهتفون الله أكبر .. جاء الحق وزهق الباطل ، وفتحت الأسواق من جديد وسكنت الأحوال ..

لكن خيانة العهد كان من طبيعة المماليك .. فسرعان ما أصبحت تلك الوثيقة لاتساوى قيمة المداد الذى كتبت به ، وعاد مراد بك بالذات إلى سيرته الأولى ، بل وفوق ذلك لم يلبث أن زاد من مظالمه وفرض الكثير من الضرائب وساءت الأحوال عما كانت ولم يشأ القدر أن يترك مصر فريسة للظلم والبغى والطغيان إذا جاء الزلزال ليحطم قوة المماليك وينتقم منهم جزاء ما إقترفوه فى حق شعب مصر .

وكـــان هـذا الـزلـزال هـو الحملـــة الفـرنسيـة التـى جاءت فقط بعـد ثلاث سنوات .

كـانت ثورة سنة ١٧٩٥م تعبيراً عن أمل الـشعب حيث أنه لم تبق طائفة من أهل مصر لم تحس وبال حكم ابراهيم ومراد .. فلما ساءت أحوال التجارة وإضطربت أحوال الناس آثروا أن يقاوموا ذلك الحكم ويثوروا على الطغيان .

لم تستمر نجاحات الثورة إلا سنة واحدة فلما عاد إبراهيم بك ومراد بك سيرتهما تصدى لهما السيد عمر مكرم بالقول :

" إننا لانـرضى الـظلم ولانسكت عليه لا دفعاً لضـرر خاص بنـا .. بل حباً فى الرعية ومرادنا من أوله إلى أخره نصرة الحق من غير إبتغاء منفعه .

وفـى النهـاية لنـا تسـاؤل يمكن أن يثـار فى الأذهـان حول ثورة الشعب المـصرى سـنة ١٧٩٥ .. وهل حقـاً تأثـر الشعـب المصرى بـالثورة الفـرنسـية التـى كانت سنة ١٧٨٩ .. أو تأثرت هذه الثورة بالثورة الأمريكية سنة ١٧٧٦م.. ولكننا نستبعد ذلك للكثير من الأسـباب بسبب العزلـة الحضارية التـى كانت تعيش فيـها مصر فى ظل الحكم العثمانى .

وان كنا لايجب أن ننكر أن الحـركات الإجتماعيـة كظواهـر طبيعيـة قد تتكرر بـطرق تلقـائية فـى أكثر مـن مكان ، ويـبدو ان المنـاخ الإنسـانى قـد سـرى اليـه هذا المعنـى الجديـد الخاص بسلطان الـشعب حيث لـم تكن البشـرية تعـرف إلا سلطان الملوك والحكام والأمراء.

ويبقـى سؤال أخير لمـاذا سميت هذه الثورة بثورة العهد الأعـظم وهل هـى تشبه الثورة الإنجليزية التـى قامت سنة ١٢١٥م فى انجلتـرا من جانب النبلاء ضد الملك جون الثـانى والعهد الذى أخـذوه عليه فيما عـرف بـاسم العهد الأعظم " Magna "Cartaومع الفـارق فى دوافع الـثورتين المـصريـة والإنجليـزية إلا أن العهـد الذى أخذ من جانب زعمـاء الشعب وتصميمهم على توثيق ذلك التعهد فى صورة حجة شـرعيـة ووثيـقة مـوقعه من أصـحاب السـلطـة والسلطان فـى مصـر وهم البـاشا وشيخى البلد مراد بك وابـراهيم بك .. ولاشك أن الدور الذى لعبه عمر مكرم مع

زعامات الشعب الدينية من مشايخ الأزهر يوضح لنا إلى أى مدى كان هذا الرجل ضمن زعامات مصر فى ذلك الزمن الموثوق بهم والذى كان عند حسن ظن الجماهير .

ويعنينا هنا القول أنه على الرغم من أن عمر مكرم كان مديناً بمنصبه كنقيب للأشراف لإبراهيم بك ومراد بك إلا أنه لم يتردد فى الوقوف إلى جانب الشعب فى حركة ١٧٩٥م ضد حكم هذين الأميرين ، وكانت صفحة فخار وشرف لعمر مكرم تدل على أنه كان لايجامل حاكماً ذا جاه أو كبيراً ذا ثراء ، وأنه يؤثر الصالح العام على علاقاته الشخصية .

وقد وقف عمر مكرم هذا الموقف المشرف وهو فى باكورة حياته السياسية وكان فى هذه الرحلة رجلاً من رجالات الصف الثانى فى مصر وظل على هذا الوضع إلى أن هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر .

الفصل الرابع
موقف عمر مكرم من الحملة الفرنسية

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت ولاتعنينا أسباب هذه الحملة وتطوراتها وتاريخها وأعمالها فى مصر بقدر مايعنينا موقف السيد عمر مكرم فى هذه الفترة من التاريخ، فقد كان ذلك الموقف إيذاناً بتطورجديد تمثلت فيه العنصرية الدينية فى أول الأمر، ثم أخذت هذه الناحية تنصهر فى بوتقة المحن شيئاً فشيئاً حتى حلت محلها الوطنية المصرية الصميمة فى أجلى معانيها.

ولما استسلمت الاسكندرية نتيجة لعدم تكافؤ القوى سواء فى التسلح أو عدد المقاتلين وبدأت الحملة زحفها نحو القاهرة ... كان السيد عمر مكرم على رأس المصريين المدافعين عن سلامة بلادهم وحرية وطنهم .. يقوى من عزيمتهم ويشد أزرهم ويلهب حماسهم ويثير فيهم الشعور بالعزة الدينية والكرامة الوطنية ، وعندما أحتدم القتال واشتد لظى المعركة كان السيد عمر بين المقاتلين واحداً منهم ، يعرض نفسه للأخطار كما يعرضون ، ويؤدى من اعمال الحرب كل ما فى استطاعته وأكثر مما كان فى استطاعته حتى لا تفتر همة أحد ممن حوله .فلما لم يجد لكل مابذله هو وأنصاره نفعاً أمام الاسلحة الحديثة والنظام الدقيق الذى أتى به الفرنسيون اضطر نقيب الاشراف ومن اشترك معه من زعماء الشعب فى الدفاع عن حرية العاصمة ..إضطر أولئك جميعاً والسيد عمر مكرم معهم إلى مغادرة القاهرة إلى بلبيس ومنها إلى يافا (١) .

لقد أثر النقيب ان يترك وطنه الذى جاهد فى سبيله وبذل من أجله مابذل حتى لايشهد دخول الفرنجة قاهرة المعز ومقر الأزهر الشريف .. ولو كان ممن

(١) لقد كان السيد عمر مكرم يراقب حركة الزعيم السكندرى محمد كريم باعتزاز وزهو وحركة مراد بك المتخاذل عن إنقاذ الاسكندرية بأسى وخوف . وقد ذكر الجبرتى فى يومياته بتاريخ ٣ صفر ١٢١٣(١٧ يوليو ١٧٩٨م)" وصعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف إلى القلعة وانزل منها بيدقاً كبيراً .
أطلقت عليه العامة البيدق النبوى فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه آلوفاً من العامة" وخرج جموع الناس معه للقتال وزحفوا نحو مواقع الفرنسيين هم وجنود مراد بك .. وقد نشب القتال بين الفريقين ولم تدم هذه المعركة سوى سويعات قليلة وانتهى الامر بفرار المماليك .وقد خرج عمر مكرم من القاهرة إلى العريش ثم إلى يافا بفلسطين . ولما رحل عمر مكرم إلى يافا .. صادر بونابرت أمواله وعزله عن نقابة الاشراف .

يؤثرون الحياة الهادئة وراحة الجسم ومتع النفس وحب المسالمة لبقى فى القاهرة ولضمن ان الحملة الفرنسية لن تؤذيه لأنها كانت بلا شك سوف تتقرب اليه بصفته يحمل منصباً دينيا وكانت الحملة قد أعلنت فى منشور نابليون للأهالى انها لاتعادى الدين الاسلامى وانها ليست موجهة ضد المصريين أو السلطان العثمانى خليفة المسلمين ولكنها جاءت فقط لتخليص مصر من استبداد المماليك.

وبلا شك لو كان فى القاهرة لأصبح عضواً فى الديوان الذى أنشـــأه نابليــون وهكذا آثر الهجرة والنفى وشظف العيش إباء للقيم ونفوراً من الذل . وترك فى مصر أملاكه وأمواله عرضة للنهب والمصادرة ، وظل فى منفاه بمدينة يافا إلى أن احتلها الفرنسيون ... فقابله نابليون وكان يعرف منزلته من قبل فأمر بارجاعه إلى مصر فوراً مكرماً ، ولكنه حدد اقامته فترة فى دمياط ثم سمح له بالانتقال إلى القاهرة وهناك ايضاً كان تحت المراقبة ولكن بصورة غير ملحوظــة.

نجاة السيد عمر مكرم من مذبحة يافا :

كان زحف نابليون على يافا استكمالا لبرنامج حملته بالاستيلاء على سوريا .. وقد بدأها بالاستيلاء على قلعة العريش والتى ظلت تقاوم مقاومة شديدة إلى أن سلمت يوم ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩م .

ثم تابع الفرنسيون زحفهم فاحتلوا خان يونس وهى أول بلدة فى فلسطين وساروا منها قاصدين غزة واستولوا عليها دون مقاومة تذكر ثم احتل اللد والرملة ووصل تجاه يافا يوم ٣ مارس وكان الجيش العثمانى بقيادة عبد الله باشا متحصناً بها فحاصرها نابليون بجنوده واستولى عليها يوم ٧ مارس بعد معركة شديدة قتل فيها من الجنود العثمانيين نحو ٢٠٠٠ قتيل ودخل الفرنسيون المدينة واعملوا فيها السيف والنار ..

ونهب الجنود الفرنسيون يافا وارتكبوا فيها من الفظائع ماتقشعر منه الأبدان باعتراف المؤرخين الفرنسيين واستمر النهب والقتل يومين متتاليين وأضطر

الجنرال روبان Robin الذى عينه نابليون قومنداناً للمدينة أن يقتل بعض الجنود من الفرنسيين العصاه لإعادة النظام ولكن جهوده ذهبت عبثاً .

ويقول بعض المؤرخين حول معركة يافا :-

١- ان النهب لم يتوقف إلا بعد أن كلٌ الجنود من الاعتداء وسفك الدماء.

٢- ان الدماء التى سفكت فى يافا وأشلاء الجثث التى تركت بها عدة أيام كانت من أسباب انتشار الوباء بين العسكر الفرنسيين وهو الوباء الذى كان من العوامل الرئيسية لإخفاق الحملة على سورية .

٣- ان المسئولية على ماحدث فى يافا لايمكن ان نبرئ منها نابليون بصفته القائد الاعلى ... وحتى لو تجاوز جنوده أوامره فان ذلك لايعفيه من المسئولية ... ورغم محاولة قائده فى الحملة على وقف جنوده عن ماكانوا يرتكبونه .. إلا ان جيشاً بمثل هذه السلوكيات يعتبر جيشاً بربرياَ همجياً غير حضارى .

ولكن تتضح صورة نابليون الحقيقية فى أنه مسئول أمام التاريخ فيما حدث ليافا حيث أنه خرج على المعتاد والمألوف وخان العهد ...ذلك انه بعد انتهاء المعركة ودخول الفرنسيين المدينة كان بها من الجنود العثمانيين نحو ٣ آلاف مقاتل ... أثروا التسليم والقاء السلاح بشروط أتفقوا عليها مع اثنين من ياوران نابليون هما بوهارنيه Beauharnaisوكروازييه Croisierومن هذه الشروط ، ان تُضمن لهم أرواحهم بعد التسليم ، وتعهد الياوران بذلك باسم القائد العام كاسرى حرب .

ولكن نابليون بعد أن فكر طويلاً فى أمرهم وتردد فى شأنهم أمر باعدامهم جميعاً رمياً بالرصاص ، وحجته فى ذلك انه كان عاجزاً عن إطعامهم وحراستهم فى بلاد نائية لم يستتب له فيها الامر .. وهى حجة واهية تنطوى على نقض العهود وتنكرها للمبادئ الانسانية وقواعد الحروب .

وقد سِيق اولئك الاسرى إلى شاطئ البحر وأعدموا جميعاً ، رمياً بالرصاص، وكان اعدامهم بهذه الطريقة الوحشية من اسباب فشل الحملة الفرنسية فى سوريا لأنه اثار فى نفوس الجنود العثمانيين عوامل السخط وحب الانتقام

وادركوا ان مصيرهم إلى الاعدام اذا هم سلموا .. فاستبسلوا فى الدفاع عن عكا وردوا الهجوم الفرنسى عليها وارجعوه عن اسوارها خائباً .. وكانت مذبحة يافا سبباً فى إخفاق الحملة الفرنسية على سورية حيث يقول المؤرخ الفرنسى "ريبو":-

" إن ثلاثة ألاف من الاعداء قتلوا مرة واحدة ولكن الجنود الباقيين قد زاد عددهم وتضاعف جهودهم للأخذ بالثأر، فأصبح القتال بينهم وبين الجيش الفرنسى صراعاً حتى الموت ... وحصد نابليون تحت اسوار عكا ما غرسه على شاطئ يافا.

وكان فى يافا عند احتلالها نحو أربعمائة من المصريين استثناهم نابليون من القتل ومن بينهم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف الذى هاجر من مصر بعد معركة الأهرام فأكرم نابليون مثواه وأعاده إلى القاهرة .

ويقول الجبرتى فى حوادث شهر شوال ١٢١٣ هـ الآتى :

" ان السيد عمر افندى نقيب الاشراف حضر إلى دمياط وبصحبته جماعة من افندية الروزنامه وغيرهم، وذلك لانهم كانوا بقلعة يافا فلما حاصرها الفرنساوية وملكوا القلعة والبلد لم يتعرضوا للمصريين وطلبهم نابليون اليه وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر ، وأنزلهم فى مركب وارسلهم إلى دمياط من البحر .

وقد استقبله الناس بحرارة فى الطريق من دمياط إلى القاهرة حيث وصل إلى بيته بساحل بولاق ، وتوجه فى اليوم الثانى مع الشيخ المهدى حيث قابل بونابرت الذى أحسن استقباله ووعده أن يرد اليه بعض متعلقاته ، واستمر مقيما بداره والناس تغدو وتروح اليه كالعادة .

ولعل نابليون أراد كسب عمر مكرم نفسه إلى جانبه للتقرب إلى المصريين لما كان يعلم من منزلته فى قلوب الناس.

من الجدير بالذكر ان السيد عمر مكرم فى منفاه الاختيارى بيافا كان يتنسم أخبار بلاده من القادمين منها إلى الشام يعلل النفس بالأمل فى عودة النخوة والشجاعة إلى المماليك ليعاودوا مناجزة الفرنسيين ومقاومتهم وعندئذ يعود

ادراجه إلى مصر ليشترك فى الجهاد ويأخذ دوره فى النضال ، ولكن ذهبت آماله ادراج الرياح وجرت الحوادث على غير مايشتهى وقد عاد السيد عمر مكرم إلى القاهرة فى ٢ من صفر ١٢١٤-٧ يوليو ١٧٩٩ وهو يحمل بين جنبيه قلباً ينبض بكره الغزاة الفرنسيين ولم يكن للود الذى ابداه نابليون إياه اى صدى فى نفسه ولم يكن ليرضى ان يضع يده فى يد غاصبى حرية وطنه وواضعى الاغلال فى أعناق مواطنيه .

وقد كان بوسعه ان يستغل تقدير بونابرت له وسعيه للتودد اليه فيقتنص هذه الفرصة ليفوز بمزايا شخصية عديدة على حساب مواطنيه ولكن السيد عمر مكرم لم يكن فى يوم من الايام مستغلاً أو نهازاً للفرص ، بل كان دائماً مواطناً شريفاً امتاز بعلو النفس ونبل القصد وبعد الهمة ورسوخ القدم فى التضحية والإيثار .

وبمكوث عمر مكرم فى منزله لفت نظره من غير شك أسلوب الحكم والإدارة الذى كان يمارسه الفرنسيون فى مصر مما كان يختلف كل الاختلاف عما الفه فى عهد البكوات المماليك والاتراك العثمانيين الذى لم يكن لهم سوى إنتجاع ثرواتهم واذلال أهلها واشاعة الفوضى والاضطراب فها وتركها نهباً للغزاة والمستعمرين .

وهناك امر اخر لابد ان يكون قد استرعى نظره وتفكيره ، بل اثار شجنه وحز فى نفسه كثيراً ذلك هو خنوع بعض المشايخ العلماء لسيطرة الفرنسيين وسيرهم فى ركب بونابرت ومباركتهم الحكم الفرنسى الجديد طمعاً فى عرض الدنيا الزائل وانتفاعاً ببعض المزايا والفوائد واقتسام الاسلاب والغنائم من اموال الاوقاف والتآمر على اغتصاب نقابة الاشراف بما يجافى أصول الدين والحمية الاسلامية ولايتفق بحال ومبادئ الشرف والنخوة الوطنية .

دور عمر مكرم فى ثورة القاهرة الثانية ضد الحملة الفرنسية ٢٠ مارس ١٨٠٠م .

لقد سجل التاريخ بما لايرقى اليه الشك أن كل من تصدى لغزو مصرإنتهى أمره إلى الهزيمة بعد زمن طال أو قصر، ولاشك ان الحملة الفرنسية على مصر، كانت نقمة ونعمة فى نفس الوقت ... كانت نقمة لانها أتت مجموعة من الافعال آذت الكثير من المصريين فى مشاعرهم وحريتهم وأهانت كبريائهم .. إلا إنها كانت نعمة لأنها فجرت فى داخلهم روح الثورة حرصاً على شرفهم وحماية لأرضهم ومعتقداتهم .

وإذا كانت الحملة لم تجد مقاومة تذكر من جانب المماليك بعد معركة إمبابة أو الاهرام التى اطاح فيها نابليون بمدفعيته المتحركة نحو نصف فرسان المماليك وهرب الباقون فإن العثمانيين لم يشاركوا فى أى تصدى للحملة عند قدومها إلى مصر وهربت الحامية العثمانية بعد نزول الحملة أرض الاسكندرية .

وكان المصريون هم الذين تصدوا للغزو الفرنسى وضحوا من أجل مصر بالكثير من الأرواح رغم عدم التكافؤ وقلة السلاح وكان لثورة القاهرة الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨م على عهد نابليون ثم ثورة القاهرة الثانية فى مارس ١٨٠٠م على عهد كليبر الذى خلف نابليون فى قيادة الحملة الاثر الكبير فى تفكير الفرنسيين أن استمرارهم مستحيلاً فوق الارض المصرية .

وكانت ثورة مارس ١٨٠٠ هى أخطر الثورات التى واجهت الحملة الفرنسية وتحتل مكانة بارزة فى التاريخ المصرى لأن دوافعها لم تكن اقتصادية فحسب (كما كان الحال فى ثورة القاهرة الاولى) بقدر ماكانت وطنية لإجبار الفرنسيين على الرحيل ، وتمتاز ثورة مارس بأنها استمرت شهراً بأكمله فقد اشتعلت فى ٢٠ مارس ١٨٠٠م وقضى عليها فى ٢١ابريل ١٨٠٠م (بينما ثورة أكتوبر لم تستمر سوى عشرة أيام).

وقد شارك فى ثورة القاهرة الثانية بعض الاتراك وبعض المماليك الفارين من

وجه الحملة ولكن هؤلاء خانوا الثورة باتفاقهم فى صلح منفرد مع الفرنسيين(١)، كما أنهم شوهوا الضمير الوطنى للثورة باعتداءاتهم على بعض المسيحيين (عكس ثورة القاهرة الأولى التى قام بها المصريون وحدهم ولم يعرف عنها أى إعتداء على المسيحيين).

وفى الثورة الثانية نجح المصريون فى إنشاء بعض المصانع اليدوية لتصنيع البارود ، كما نجح الثوار فى صب بعض المدافع البدائية إلى جانب أنهم لم يركزوا أنفسهم فى حى واحد (كما حدث فى ثورة القاهرة الاولى) .. فقد كان ثوار القاهرة موزعين على كل أنحاء القاهرة .. صحيح أنها بدأت من بولاق –ذلك الحى الشعبى العريق –إلا أنها سرعان ما أنتشرت فى أحياء باب اللوق والمدابغ والمحجر والشيخ ريحان والناصرية وقصر العينى وسوق السلام وباب النصر وباب الحديد وباب القرافة والسويقة والرويعى .

وكانت الثورة فى تنظيمها شكلاً مثيراً للاعجاب وقد شارك فيها النساء والأطفال .. وبطل هذه الثورة هم العامة .. ولكن قادتها كانوا من طبقات مختلفة وعلى رأسهم رجال الدين وزعامات الأزهر .. وكان على رأس قادة الثورة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والسيد أحمد المحروقى نقيب التجار ومصطفى البشتيلى من الزعامات الشعبية.

أما عن أسباب الثورة ودوافعها فيمكن تلخيصها فى الآتى :

الدوافع الوطنية والتى تعود إلى الرغبة فى إنهاء الوجود الفرنسى فى مصر خاصة وأن المصريين لم ينسوا مافعله الفرنسيون بالازهر وضحايا ثورة القاهرة الاولى ، وقد كان لوجود عمر مكرم بين المصريين هذه المرة دافع أكبر على الجهاد الوطنى بعد أن ظل غائباً عن مصر مدة ثمانية شهور ، ولما عادإلى مصر كانت مذبحة يافا لاتزال ماثلة فى ذهنه مما زاد من كراهيته للفرنسيين وبدأ يبث فى نفوس المصريين روح التمرد ، والعصيان ويعد المصريين للثورة على أسلوب أقوى إثارة مما حدث فى الثورة الاولى .

(١) عرض كليبر على مراد بك الذى كان منضماً لثورة القاهرة الثانية ان يعينه من جديد حاكماً على الصعيد ، فترك المصريين يواجهون الجحيم وحدهم وخان الثورة بقبوله المنصب .

أما عن الدوافع الاقتصادية للثورة فانها تأتى فى المرتبة الثانية .. ذلك ان كليبر قام بفرض المزيد من الضرائب والغرامات وأمر بمصادرة بعض املاك التجار واستعملت القسوة فى جباية هذه الضرائب .. ولم تكن الأحوال الاقتصادية فى البلاد بالنسبة للأهالى قادرة على الوفاء بمثل هذه الضرائب .. حيث انتشرت البطالة وكسدت التجارة وبارت الزراعة مما جعل نفوس المصريين تمتلئ بالتذمر والسخط وتتحين الفرصة للثورة عندما تلوح لها.

وكان لتشجيع الاتراك والمماليك للمصريين عاملاً هاماً فى نشوب الثورة خاصة بعد قدوم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والذى كان قد ترك مصر وخرج إلى الشام مع ابراهيم بك .. ولاشك أن العقيدة الدينية أيضاً كان لها دور فى اذكاء نيران الثورة داخل نفوس المصريين لأن وجهة نظرهم أن هذه الحملة الفرنسية كانت امتداد لما سبق ان وجه للشرق من حروب صليبية .

أحداث ثورة القاهرة الثانية :

فى نفس اليوم الذى كان كليبر يحارب الاتراك فى معركة عين شمس (هليوبوليس) نشبت ثورة الشعب الثانية ضد الوجود الفرنسى فى ٢٠ مارس ١٨٠٠، واستمرت أحداثها حتى ٢١ ابريل ، وهى أول ثورة فى التاريخ المصرى الحديث يستمر فيها النضال طوال هذه المدة بلا توقف ، وكل يوم يسقط ضحايا من الجانبين المصرى والفرنسى .

وقد أخذ الفرنسيون على غرة فى هذه الثورة وأن كانت أسبابها غير خافية عليهم وتنبأ بها كليبر قبل وقوعها ، وليس أدل على ذلك من أنه أصدر أمره إلى " فردييه" حاكم القاهرة بالمحافظة على المواصلات بين قصر النيل وقلعة الجبل وقلعة قنطرة الليمون ، وأصدر أمره أيضاً إلى الجنرال " زايونشك" حاكم الجيزة بمساعدة " فردييه" فى حالة حدوث أى اضطراب .

وقد تسرب بعض الجنود الاتراك من عين شمس بقيادة فتوح باشا ، كما حضر ناصف باشا على رأس كتيبة من بلبيس وتوجه إلى القاهرة وكان يرافقه ابراهيم بك ، ومحمد بك الالفى وبدأ الاتراك والمماليك يندسون بين الأهإلى

المستعدين أصلاً للثورة، والمتربصين بالفرنسيين لتشجيعهم على الثورة مشيعين أن كليبر قد هزم امام الاتراك وان الترك بصدد دخول القاهرة .

وقد بدأت الثورة من حى بولاق ومنه انتشرت إلى بقية الاحياء حيث غطت فى اليوم الاول كل القاهـرة وتدفقت جموع العـامة للمشـاركة .. وهاجم الـثوار معسكر فـرنسـى قـرب بولاق فنهبوا جميع مـافيه من سلاح وخيـام ومؤن وقتلوا حراسه .. ولم تلبث جموع العـامة أن تـوجهت إلى الـتلال الواقعـة خارج بـاب النصـر وأخذوا يهاجمون مواقع الفرنسيين .

ومـن الجدير بالذكر أن الثورة لم تكن قاصرة على القاهـرة رغم خطأ تسميتها تـاريخيـاً بـأنهـا ثـورة القـاهـرة .. فلقـد ثـارت الاقـاليم بمجـرد أن وصلتهـا أحـداث القـاهـرة فـثارت منـوف ومن بعدهـا دمياط .. ومـالبثت الدلتـا بأكملهـا أن تحركت لمهاجمـة معاقل الفـرنسيين ، وجـاءت الثورة فـى الوجه الـقبلى قـاسية ومـريرة من نـاحية لـوجود عدد كـبير من المـمـاليك فيه ، ومن النـاحية الثـانية لأن الصعـيد كان يملك أدوات القتال ضد الفرنسيين بشكل مكثف وكان عدد ثوار القاهرة وحدها مايقرب من عشرة آلاف مواطن .

واشتدت أحداث الثورة فى الأيام التالية ونجح الثوار فى أسر بعض الفرنسيين فى الجـمـاليـة فأقـامـوا معسكر لـكل الاسرى هنـاك وكان علـى كل من يقبـض على فرنسـى أن يأخذه إلـى هذا المعسكـر ويأخذ عليه مـكافأة .. ونصب الـثوار محكمة لمحاكمة الخونة المتعـاونين مع الفرنسيين وظلت الاوضاع تسير من سيئ إلى أسوأ بالنسبة للفرنسيين والذين حـاولوا للمرة الـثانية وسـاطة رجال الـدين من المشايخ ولكن العامة اعتدت على هؤلاء مما جعل الوساطة تفشل .

ولما وجـد كليبـر أن الثورة كل يوم يستفـحل أمرهـا وعدد الـثوار يـزداد وخوف الفرنسيين يبدو واضحـاً بدأ فى استخدام القوة بشكل مفرط وأخذ يضرب معقل الثورة وهـو بولاق بقسوة وبلا رحمـة باعتبار أن هذا الحـى رأس الثورة .. وبدأ فى الوقت نفسه يحاول الاتصال بـالمماليك ليتخلـوا عن الثوار ووعد مـراد بك بالعودة إلى حكم الصعيد تحت سيادة الفـرنسيين لو ترك الثورة .. كما أنه تعهد للأتراك بعدم التعـرض لهم إن انسحبوا من الـثورة .. وهكذا تـرك المصـريون وحدهم ليلقوا

مصيـرهم وتشجع كليبـر وقام بضـرب الثوار بعنف وبـالـذات فـى بـولاق وأنتهـى الموقف بتسليم الثوار نظريا .

زعماء ثورة القاهرة الثانية ودور السيد عمر مكرم :

أولا : لم يشارك فى هذه الثورة أى فرد من اعضاء الديوان .. من ناحية لأن الشعب اعتبرهم متعاونين مع الاحتلال الفرنسى .

ولعل هناك تفسير آخر لعدم مشاركتهم ، وهو أن هؤلاء استكانوا لمواقعهم الجديدة وقربهم من السلطة وما كان يعنيه ذلك من امتيازات لهم .. وإذا كانت مصر قد فقدت قيادات الثورة الأولى عدا أبو الأنوار السادات الذى خاف الفرنسيون من إعدامه لأنه كان من الأشراف وماقد يعنى إعدامه من خروج الجماهير عن عقلها وراء عاطفتها الدينية .. وإن كانوا فى الوقت نفسه أساءوا معاملته هو وعائلته ، فإننا نجد لذلك زعامات جديدة تتصدر هذه الثورة .. وكان من خصائص الزعامة الجديدة أنها كانت مدنية ومتأثرة بالظروف الاقتصادية .. وأن تأثير قيادة المشايخ والعلماء فى هذه الثورة لم يكن ظاهراً كما كان الوضع بالنسبة للثورة الأولى .

وأول زعماء هذه الثورة كان السيد عمر مكرم والسيد احمد المحروقى كبير تجار القاهرة والسيد مصطفى البشتيلى أحد أصحاب الوكالات التجارية وهو مواطن مصرى من بولاق والذى ضحى بامواله فى سبيل الثورة (١) وكان ضمن أعيان بولاق وقد سُمى البشتيلى نسبة إلى " بشتيل " قرية تتبع الجيزة وقد سبق أن اعتقله الفرنسيون قبل الثورة بستة أشهر (٤ أغسطس ١٧٩٩م) لما بلغهم من بعض الوشاة أن بوكالته قدوراً مملوءة بالبارود ، ولما فتشوا وكالته ضبطوا هذه القدور فأخذوها واعتقلوه وظل سجيناً حتى أفرج عنه بعد توقيع اتفاقية العريش، ولما قامت الثورة كان البشتيلى أحد دعاتها والمشاركين فيها بل والذين خططوا للهجوم على المعسكرات الفرنسية وشارك فى التنفيذ بنفسه ، كما شارك أيضا

(١) كان السيد عمر مكرم فى هذه الثورة يؤدى دور القائد العام فى المعركة الحربية فقد كان : " يستنفر الناس للقتال ويثير حماستهم ويشعل نار المقاومة فى صدورهم ، فكانوا يصيحون لسماع نداءاته ويلبون على الفور إشارته فيهبون لجمع العتاد والمؤن

فـى الثـورة أبـو الأنـوار السـادات وإن كـان دوره هنـا أقل من الـدور الـذى لعبه فـى الثورة الأولى .. كما كان من ضمن زعامات الثورة الشيخ محمد الجوهرى.

ولا شك أن قـائدى الثـورة الأسـاسيين كانـا همـا أحمـد المحروقـى وعمـر مكرم ويعتبر المؤرخين أن عمر مكرم كان عقلها والمخطط لها بينما كان أحمد المحروقى اليـد التنفيـذية فهـو الـدينـامـو المحـرك لهـا .. وكـان عمـر مكـرم يعتـذر عن عـدم مشاركته فى الثورة الأولى ومن ثم نجده يبذل مـا فوق استطاعة البشر فى الثورة الثانية ..

ومـن الجديـر بالـذكر أن احمد المحـروقى كـان زميل نفـى مع عمـر مكـرم فى الشام وقد صادر الفـرنسيون أمواله فور خـروجه من مـصر أسـوة بما فعلوه مع عمر مكرم .

أنك إذا طلبت من موكب التاريخ أن يقـدم كشف حساب أمام الأجيال المتعاقبة عن الزعماء فى الحركة الوطنية فلن ينسى شعب مصر دور عمر مكرم وما كان له من تأثير فى دفع عجلة الثورة وفى تلقين الفرنسيين درساً تاريخياً لا ينسى .

وأنتهت الثورة .. وكـان إنتقـام كليبـر من الثوار رهيبـاً فلم يكتف بإعـدام بعض قادة الثوار بل هدم المنازل على الكثير من الثوار وأحرقها وفـرض غرامة بـاهظة علـى الأهـالـى ، كمـا أنه فرض إتـاوة على التجار وأجبـر الأهـالى علـى تسليـم ما لـديهم مـن حبـوب وغـلال وسـلاح وذخيـرة وقبـض الفـرنسيـون علـى مصـطفـى البشتيلـى أحد منـاضلى الثورة وأبرز زعمـائها فـى بولاق وأمـروا بضربه بـالعصى حتى مات .. يـالها من عدالة فـرنسية .. ويالهـا من رسالة حضـارية تلك التى أتت بهـذا التأديب اللاحضارى .. وكان كل ذنبهم أنهم كانـوا يطالبون بحقهم فى الحياة .. أما عـمر مكرم فقد نجا .. كما نجـا من قبله أبو الأنوار السادات وذلك لأنه من الأشراف من نـاحية .. ومـن ناحيـة أخرى فـإن كليبـر خشـى سوء العـاقبـة بعد أى تصرف أحمق معه .

وكأن القـدر قد أراد الانتقام من كليبر(١) .. فقـد قام أحـد شباب سـوريا من حلب يُدعى سليمان الحلبى - كان يدرس فى الأزهـر - باغتيال كليبـر .. فى قصره .. وكان ذلك بداية النهاية للحملة الفرنسية على مصر.

(١) كان من ضمن دوافعه ما فعله كليبر بالوطنيين فى ثورة القاهرة الثانية.

الفصل الخامس
السيد عمر مكرم وثورة ١٢ مايو ١٨٠٥م

أولا : عمر مكرم والفراغ السياسى :

عادت الحملة الفرنسية من حيث أتت بعد أن مكثت فى مصر ثلاث سنوات وثلاث أشهر .. وبعد خروج هذه الحملة أصبحت مصر مسرحا لقوى متصارعة تتنازع على السلطة فيها وتناضل بكل ما أوتيت من قوة ودهاء لتستعيد سلطانها الغارب ونفوذها المنهار .

وأول هذه القوى المتصارعة .. الاتراك (أى الدولة العثمانية) والامراء من المماليك إلى جانب محاولات من الانجليز للسيطرة على الحكم .

ولكن كانت هناك قوة مستترة خفية تكاد تقف على نفس الخط مع القوى الثلاث وهى قوة الشعب المصرى الذى يعمل على محاربة القوى الثلاث .. وكان السيد عمر مكرم نقيب الأشراف من أبرز الشخصيات التى تزعمت القوة الشعبية ..

وأول والى عثمانى تولى حكم مصر بعد جلاء الفرنسيين كان حسين باشا وكان الانجليز يتلكأون فى الجلاء عن مصر بعد أن شاركو فى اخراج الحملة الفرنسية مع الاتراك العثمانيين وهذا التلكؤ جعل بونابرت الذى أصبح القنصل الأول فى فرنسا منذ سنة ١٧٩٩ وصاحب السلطة الأوحد بها .. يرسل الكولونيل الفرنسى "سباستيانى" ليراقب سرعة جلاء الانجليز عن مصر .. وقد قام كبار العلماء المصريين باستقباله بحفاوة وعلى رأس هؤلاء السيد/عمر مكرم نقيب الأشراف ومعه السيد محمد ابو الانوار السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى .

وبالفعل تم جلاء الانجليز عن مصر ١٦ مارس سنة ١٨٠٣ بعد أن وقعت بريطانيا مع فرنسا إتفاقية عرفت باسم اتفاقية "اميان" سنة ١٨٠٢م والتى جاء فيها ضرورة خروج الانجليز من مصر حفاظاً على الميزان السياسى بين الدولتين .. وعند خروج الانجليز من مصر سافر معهم محمد بك الألفى أحد زعماء

المماليك الذى كان يميل اليهم وعلى استعداد لتنفيذ مخطط الانجليز فى مصر من الباطن.

ولم تلث الدولة العثمانية أن عينت ولياً جديداً هو خسرو باشا الذى أراد التخلص من المماليك ولكنه فشل بسبب حماية الانجليز لهم .. وعجز خسرو باشا عن رفع مرتبات الجند الألبان فتمرد الجنود عليه وحاصروه فلم يجد أمامه إلا الفرار وكانت مدة بقائه فى الولاية سنة وثلاث شهور وواحد وعشرين يوماً ، وعين طاهر باشا قائد الجند الألبان فى مصر فى مايو ١٨٠٣ قائمقام ولكنه عجز عن تدبير مرتبات الجند فدبر محمد على تمرداً من الجنود ضده نتج عنه قتل طاهر باشا وقطع رأسه وقذفت من النافذة التى كان يجلس بجانبها .

وبدأ الصراع بين الفرق العثمانية (الألبان والأنكشارية) وقد قامت الانكشارية بتولية رجلاً يدعى أحمد باشا كان معينا من الباب العإلى واليا على المدينة المنورة ولكن محمد على أبى الاعتراف بذلك وتحالف مؤقتا مع البرديسى ، ولكى تكون المحالفة بينهما متينة الأركان كان لابد من التآخى بينهما بأن أخرج كل منهما ذراعه وأمتص قليلا من دم أخيه (وهى عادة شرفية قديمة) ونجح محمد على والبرديسى فى سجن الوالى الذى عينته فرقة الانكشارية ولكن السلطان لم يسكت على هذا فقام بتعيين والى جديد يدعى على باشا الجزائرلى وأرسله إلى مصر معززاً بألف رجل .

ولكن محمد على نجح فى إيقاعه فى شرك نصبه له فى مدينة الاسكندرية حيث لاقى حتفه وفى سنة ١٨٠٤ عاد الألفى من انجلترا وخشى محمد على أن يتحالف مع بنى جنسه من المماليك ولذلك أوعز إلى البرديسى للتخلص منه قبل أن يقضى عليه الألفى بمساعدة الانجليز واقتنع أن الانجليز جندوا الألفى للاطاحة به .. ولم يستطع الألفى أن يجد لنفسه القوة المساندة لتحقيق أهدافه فهرب إلى الصعيد وتخيل البرديسى أنه قد أصبح صاحب الأمر والنهى فامتلئ غروراً واشتط فى طلب المال وفرض الضراب حتى يدفع رواتب الجند المناصرة وأمر بتحصيل ضرائب جديدة من الشعب بدءاً من ٧ مارس ١٨٠٤م .

وكان من أثر هذه الضرائب الجديدة التى أستخدمها البرديسى أن أرتفعت الأسعار وشحت المواد الغذائية مما أدى لأول مرة فى تاريخ مصر إلى خروج مظاهرة نسائية تهتف ضد البرديسى بقولها " أيش تريدى يا برديسى من تفليسى" .

وثار أهالى القاهرة واشتد حنقهم على حكومة البكوات .. واجتمعت الجماهير فى الجوامع وخرج الفقراء والعامة وظلوا يجوبون شوارع القاهرة ويصرخون وبأيديهم دفوف يضربون عليها .. وكانت النساء تندب وهى تردد : "ايش تأخذ من تفليسى يابرديسى " وكانت ايديهم مصبوغة بالنيلة "

وانتهز محمد على فرصة ثورة القاهريين فى ٨ مارس ١٨٠٤م وبدأ يدبر انقلاباً للاطاحة بحكومة البكوات المماليك ، وبدأ يعلن انحيازه للجماهير واجتمع بالمشايخ واختلط بالثوار وتعهد لهم بوقف كل الآلام التى يشكو منها الشعب ورفع كل الضرائب الجديدة التى فرضها البرديسى .. وكانت هذه الوعود سببا فى انحياز المشايخ إلى جانب محمد على وأسرع الشعب بناء على هذه الثقة بينه وبين محمد على بالهجوم على بيوت المماليك .. ففر البرديسى ولحقه إبراهيم بك وانفض من حولهما الكثير من أنصارهما .

ويمكن أن يقال أن هذه الضربة التى وجهها محمد على للمماليك بناءً على ثقة الشعب به أنهت المماليك كقوة يمكن أن تسيطر على مقدرات الأمور فى مصر .. خاصة وأن محمد على قتل من أتباع المماليك الكثيرين ومن بكواتهم حوإلى ٣٥٠ وحاول محمد على أن يتظاهر بأنه لايرغب فى السلطة .. ولذا أطلق سراح محمد خسرو باشا من القلعة ولكن الجند الألبان رفضوا خسرو باشا فقام محمد على بدعوة خورشيد باشا حاكم الاسكندرية ليحكم القاهرة عقب ترحيل خسرو إلى الأستانة .

ومنذ أن تسلم خورشيد باشا حكم مصر بدأ ينتهج سياسة هدفها ضرب المماليك والاعتماد على الألبان لاضعافهم فى هذا الشأن ولكن سياسته الاقتصادية كانت هى السبب الأول لثورة مايو والتى كانت الأمور مهيأة لها تماما .

عمـر مكـرم

دور عمر مكرم فى ثورة ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ .

تمهيد :

لو كان للتاريخ مقبرة لكتب على أحد شواهدها :

" هنا أول شعب عشق الثورات وضحى من أجل كرامته وكيانه وواجه أعتى الجيوش وأكبر القوى ولم تبخل جماهيره فى الوفاء بما يمليه عليها ضميرها الثورى وقت الأزمات والنكبات .. ولقد أدرك محمد على بعد ثورة مايو ١٨٠٥م ماتخبئه نفوس المصريين من المواهب والقدرات ، وأن ماينقصهم فقط هو قيادة محنكة وتنظيم سليم.. ونجح فى أن يبنى جنوداً من الفلاحين يبذلون أرواحهم رخيصة فى غير ضعف أو جبن فى سبيل مجد مصر وعظمتها .

أسباب الثورة :

بدأت أسباب الثورة فى شكل اقتصادى ولكن المصريين كانوا فى حاجة إلى الاستقرار بعد أن سئموا الفوضى الاجتماعية من ناحية ، ومن ناحية ثانية لم يكن المصريون فى مرحلة الصراع بين هذه القوى يقفون موقف المتفرج .

كانت مقدمة الثورة فى ٨ مارس ، واتسمت بتدفق جماهيرى منقطع النظير .. وواجه الشعب المماليك والأتراك .. واحتلت الجماهير الميادين والشوارع .

وكان من أثر هذه المقدمات أن خاف محمد على أن تصيب الثورة جنوده بالأذى فحول نقمة الجماهير نحو المماليك .. ومالبث أن انضم هو إلى الشعب وانقض على المماليك فكسب بهذه الخطوة الثقة كاملة .. وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يكره الظلم ويحب العدل وينحاز للجماهير .. وهكذا أصبحت الفرصة سانحة ليحقق محمد على أماله ويتولى السلطة فى مصر .

ويمكن تحديد أسباب ثورة مايو فى العوامل التالية :

١- اشتداد خورشيد فى تحصيل المغارم المالية وجمع الأموال من الأهالى والأوروبيين الموجودين فى القاهرة إلى درجة أن الأهالى ثاروا على المحصلين وقتلوا بعضهم .

٢- ظهور مجاعة فى القاهرة نتيجة لتجمع المماليك فى الصعيد ومنعهم الغلال عن العاصمة .

٣- استقدام خورشيد باشا للجنود الدلاة الذين نزلوا مصر القديمة فى ٢١ فبراير سنة ١٨٠٥م فأثاروا الرعب فى قلوب أهل القاهرة بسبب فظائعهم، وأغلقت المحال وعم الاضطراب وأنتشرت الفوضى بعد أن بدأوا يقتحمون المنازل ويطردون السكان ويغتصبون النساء ويقتلونهن ويأخذون شباب الأهالى ومتاعهم ويخطفون الأطفال .

٤- بدأت أحداث الثورة بتجميع الأهالى وخروجهم وجها لوجه لمواجهة الجنود الدلاة ، بل وفى تمرد على خورشيد لم يسبق له مثيل وأطلقت الصيحات بأن مصر لن تكون متاعاً لأحد .. كفانا ما أصابنا .. نريد حاكما يعرف الحق والعدل ويرفع عنا الظلم .

زعامات الثورة :

تركزت زعامة الثورة فى ثلاث شخصيات هم :

- عمر مكرم نقيب الأشراف ، ورفيق كفاحه أحمد المحروقى كبير تجار القاهرة والشيخ عبد الله الشرقاوى .. ولكن شارك فيها أيضا زعامات من العامة مثل ابن شمعة شيخ الجزارين .. وآمنت الجماهير بقيادة زعامتها بضرورة عزل خورشيد باشا بعد أن رفض تلبية مطالب الشعب التى عرضها عليه الزعماء الثلاثة وهذه المطالب :

أولا : رفع المظالم عن الشعب وعدم جباية أموال جديدة .

ثانيا : أن يقيم الجنود فى الجيزة بعيدا عن العاصمة ولايسمح لهم بدخول القاهرة ومعهم أسلحتهم رغبة فى التخلص من شرورهم .

ثالثا : فتح طرق المواصلات بين القاهرة والصعيد .

ولكن خورشيد باشا رفض هذه المطالب عندئذ قرر الشعب بزعامة عمر مكرم والمحروقى وعبد الله الشرقاى عزل الوالى وطرده من منصبه وتولية محمد على مكانه ، ويصف الجبرتى ماوقع بين محمد على والمشايخ حيث قال الجبرتى :

عمـر مكـرم

" قال عمـر مكرم نيابة عـن زعامات الشعب : " إننـا لا نريد هذا البـاشا حاكما علينا .. ولابد من عزله من الولاية " .

فسألهم محمد على .. ومن تريدونه يكون واليا " .

قالوا له :

لا نـرضى إلا بـك واليا علينا بشروطنـا لما نتوسمه فيـك من العدالـة والخير " ولكن محمـد على امتنع أولا ثم رضـى فأحضروا له " كركا " وعليه قفطـانا ، وقام السـيد عـمر مـكرم والـشيخ عبـد الله الشـرقاوى فـألبساه لـه وقت العصـر ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة .

ولكن خورشيـد باشا رفض اعتزال الحكم نزولاً – كما قال على إرادة الفلاحين فحاصره محمد على والجند الألبان فى القلعة وتكاثرت الجماهير حولها .. وظل خورشيـد سجينـا حتى أصـدر السلطـان فرمـانا فـى ٩ يوليـو سنة ١٨٠٥ واضـطر خورشيد بناءً على أمر السلطان إلى مغادرة القلعة .. وخلصـت مصر لمحمد على.

إن ثورة مـايـو تمثل قمـة الـوعـى الـشعبـى المصـرى ولا شك أن الكثيـرين قـد يتساءلون ولماذا لم يول المصريون منهم واحدا .

والاجابـة على ذلك قـد تحتمل الكثير من التفسيرات والتـعليلات لعل أولها أن الـشخصيـة المصريـة فى ذلك الـوقت لم تكن قد نضجـت سياسيـاً بحيث يمكن أن تنفصل عن الدولة العثمـانية ، ثم إن إرادة الجماهير الشعبية كانت لا تكون جيشاً نظاميـاً قادراً على المواجهة، وعـادة فى الدول المتخلفة أو الـتى يخيم عليها الظلام يكون الجيش هو أداة الثورة الذى يمكن أن يفرض أمرا ما .. ومصر لم تكن تملك جيشـاً من المصـريين وليس لـديهـا أى قـوى عسـكريـة تستطيع أن تحسم الأمـور لـصالح الـشعب المصـرى .. هذا بـالإضافـة إلى أن محـمد علـى كان يـدير كـافة الأحـداث .. ومن ثم كان لا يسمح ولـن يسمح بـأن يجنـى أحد ثمرة مـا كان يدبره ، وما كـانت تحمله نفسه من طمـوح هدفه الأول الـوصول إلـى السلـطة يضـاف إلى ذلك أن العثمـانيين كانـوا لن يسمحـوا بذلك .. إذ معنـى هذا أن يـأتى جيش تركى لغزو مصر .

وربما لو أن الزعامات الشعبية فكرت فى أن تترك أحد منهم يتولى الحكم لكان ذلك داعيا لتكتل المماليك والألبان والأتراك ضد المصريين .

ونحن نرفض التعليل الذى قد يعزو ذلك إلى أن الصراعات بين الزعامات الشعبية وحقد المصريين فى القمة بعضهم على بعض هو السبب فى أنهم فضلوا وافدا غريباً ، ليتولى أمرهم ويدللون على ذلك الصراع بما حدث فى عهد محمد على وإنحياز بعض العلماء وبعضهم ضد بعض فى الأيام الأولى من حكمه .

بقى أن نقول أن نداء الثورة سجل الكثير من عبقرية الشعب المصرى .. فهى ثورة كل الفئات ولا يجب أن ننسى أنه اذا كان للتاريخ كلمة فإنه يجب أن يسجل فيها مايلى :

" هنا يرقد أبطال ثورة مايو والتى أتت بمحمد على حاكما بأمر الشعب ونائبا عن الشعب وممثلاً لحكم الحق والعدل .

" هنا يرقد الوطنيون الذين ضحوا فى صمت لينقذوا مصر من الفوضى الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والإدارية .. استشهدوا فى سبيلها ليسيروا بها نحو الاستقرار السياسى من أجل غد أفضل أكدته الأيام مع بناء الدولة الحديثة فى مصر الذى بدأ فجر يوم الاثنين ١٣ مايو سنة ١٨٠٥م .

جهر المصريون بعزل الوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا ، واقامة محمد على بالنيابة حتى يأتى له فرمان السلطان فى الولاية .. ويمكننا أن نقرر فى نهاية هذه السطور :

١) كانت ثورة مايو ١٨٠٥ ضرورية لوضع حد لما يدور من فوضى وتسيب وإنهيار .. كما كان عمرمكرم هو أول من إقترح على المشايخ والأعيان عزل خورشيد وتعيين محمد على مكانه حيث كان رأى عمر مكرم نافذا وكلمته مسموعة فقد أخذ الحاضرون باقتراحه ولم يرتفع صوت واحد بالمعارضة .

٢) أن عمر مكرم كان يرى أن والى مصر يجب أن يكون عثمانياً حتى لايطمع أحد فى مصر استناداً إلى مهابة الدولة العثمانية وقوتها العسكرية .

وقد نعت أحد رجال السياسة فى فرنسا هذه العريضة التى فى ضوئها تولى محمد على الحكم والتى تضمنت شروط المشايخ بأنها وثيقة الحقوق bill des droits وأنها تشبه وثيقة قانون الحقوق الانجليزية التى أقرها البرلمان الانجليزى فى سنة ١٦٨٩م Bill of Rights عقب الثورة التى قام بها الشعب الانجليزى فى سنة ١٦٨٨، وتعتبر هذه الوثيقة من بين القواعد التى قامت عليها حرية الشعب الانجليزى وأعلن فيها أن حق الملك فى العرش مستمد من إرادة الشعب الممثل فى البرلمان .. وأن البرلمان له حق نقل التاج وفقاً لمصلحة البلاد .. وأنه لايجوز للملك أن يفرض الضرائب بدون موافقة البرلمان .

وكانت الوثيقة التى كانت تحمل توقيع العلماء وقدموها لخورشيد فرفضها ثم لمحمد على فقبلها .. تشبه قانون الحقوق المذكور .. فهى قد انهت حكم أحمد خورشيد باشا آخر والى عثمانى يحكم مصر وفق النظام الذى أرسى قواعده السلطان سليم الأول عقب الغزو العثمانى لمصر سنة ١٥١٧,

وكان من ضمن ماجاء فى الوثيقة المصرية نصا بعدم إنشاء أية ضريبة دون موافقة الشعب ممثلاً فى زعمائه المشايخ والأعيان ، وهذا النص صورة للمبدأ الدستورى المعروف " No Taxation without repesentation " أى لاضريبة بدون قانون يعرض على ممثلى الشعب.. والفارق بين هاتين الوثيقتين محصور فى مجال التطبيق العملى .. فملوك انجلترا احترموا وثيقة قانون الحقوق والتزموا بها منهاجاً ومسلكاً فى تصرفاتهم بينما رفضها خورشيد ، ثم قبلها محمد على ولكنه لم يعمل بها أكثر من سنتين ثم عبث بها .

لقد كانت ثورة سنة ١٨٠٥ والكفاح المسلح الذى حمل الشعب شعلته أربعة أشهر حدثاً سياسياً فريداً فى تاريخ مصر القومى ، فلأول مرة يقوم زعماء الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم بثورة يطيحون فيها بأحد الباشوات العثمانيين أتسم عهده بالاسراف فى الظلم ، ويسندون الحكم إلى حاكم وقع عليه اختيارهم بمحض رغبتهم .

ومعنى هذا أن الزعماء والمشايخ لم يقنعوا بالدور التقليدى الذى كانوا يقومون به من قبل وهو بذل الوساطة بين الحاكم والشعب بل تزعموا المحكومين وخاطبوا

الحـاكمين بلهجة شـديدة الجرأة بعيدة المعنى .. وهـذا هو البعث الجـديد لمصر .. وهو سـر القوة التى بلغتها فى السنوات الأولى من القرن الـ١٩ وكـان عماد محمد على وسبب انتصاراته .

وكـان المعتاد أن الامـراء المـماليك هم الـذين يعـزلون البـاشـا العثمـانى دون ان يكون لـزعماء الشـعب دور فى هذا العـزل .. وبذلك تظهـر أهمية ثورة مايو ١٨٠٥ حيث ظهـر العنصر المصرى الأصيل فى المشاركـة فى تحديد من يحكم مصر وبناء مستقبلها بشروط اسـاسية هى التزام العـدل وعدم انشاء أية ضـريبة دون موافقة مسبقـة من الـزعمـاء علـى سنهـا والـرجـوع إليهم فـى شئـون الحكم وهـى مبـادئ دستورية هامة .. وكان تقريرها كسباً كبيراً للشعب المصرى .

وارتفع عـمر مكرم فى هذه الـثورة بطلاً مصرياً رفع صـوت الشعب عالياً بحقه فى الحـياة الكريمة وقـد ترتبت على هـذه المبادئ نتيجـة هامة هى اسهـام الزعماء وعلى رأسـهم عمر مكـرم فى مواجهـة ومعالجة الأزمـات والأحداث الخطيـرة التى تلاحقت بعـد ذلك مثل أزمـة نقل محمـد على إلـى سـالـونيك والحـملة البـريطـانية علـى مصـر ١٨٠٧ ، والـوسـاطـة التـى طلبهـا محمـد علـى منهم لإنهـاء خصـومـة المماليك له .

كما كانت هناك نتيجـة اخرى هـى أنه لما أراد محمد على أن يتحلل من الالتزام الذى يقـضى عليه بطلب المشـورة من الـزعمـاء والرجـوع إليهم فـى شئـون الحكم تمسك عمر مـكرم بالميثـاق الذى وافق عليه عنـد مبايعته فـى ١٣ من مايو ١٨٠٥ ، فحدث صراع حـول هذا المبدأ بين عمر مكرم ومحـمد على أدى إلى وقوع الصدام بينهما .

وتبدو روعـة ثورة ١٨٠٥ فـى إنها كشفت عـن معدن الـشعب المصرى وطبيعته الأبيـة ، فمـا ضعف ومـا وهن ومـا أستكان أمـام ظلم الحـكم العـثمـانـى بل قـابل التـحدى بتحـد مثله ، وصـمم على مـواجهة البـاشا الظـالم أحمـد خورشيـد وعقد العـزم فى غيـر تردد علـى تحقيق مطلبه بعزله مـن منصبه بـاستخدام القـوة مهما كـانت التضحية ، وهكذا تجلت فى الشعب إبـان نضاله المسلح ضد خورشيد أروع صور الكفاح والفدائية والبذل وظهرت فيه روح العزة والكرامة فى أسمى درجاتها

الفصل السادس
عمر مكرم .. و.. محمد على
سنوات الحظوة .. ورحلة المعاناة

فى ١١ من اغسطس سنة ١٨٠٥ غادر خورشيد باشا دار عمر مكرم متجها إلى ميناء القاهرة النهرى فى بولاق وأقلعت السفن تحمله مع حريمه وأتباعه وأمتعته .

وبرحيل خورشيد توج الشعب كفاحه باعلاء كلمته واعلاء إرادته على الدولة العثمانية وانتصاره على أحمد خورشيد .

ولا شك أنه فى مقدمة الأسباب التى أرغمت خورشيد باشا على الإذعان هو نشاط المقاومة الشعبية واصرار عمر مكرم زعيم الثورة على عزله .. ثم صدور أمر الباب العالى الذى اعترف –على عادته بالأمر الواقع –بتثبيت محمد على فى مصر ومطالبة خورشيد باشا بالنزول من القلعة حيث تم تعيينه واليا على سالونيك .

لقد قامت ثورة ١٨٠٥م بإرادة الشعب ، واعتمدت على الشعب ونجحت بقوة الشعب ، وكان هناك زعماء مصريون أسهموا فى إشعال جذوتها ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن عمر مكرم كان هو أبرز الزعماء بلا منازع فقد كان هو عماد الثورة وروحها وموجهها .. فهو الذى دعا إليها ونظمها ودعمها وجنبها أسباب الفشل فى أكثر من مرة بفضل يقظته وإقدامه وإخلاصه .. وهو الذى دعا الشعب إلى مواصلة الجهاد وواصل المرور غدواً وعشياً على مواقع الثوار فى سائر النواحى والجهات يثير فيهم الحماس وينظم المقاومة أحسن مايكون التنظيم ، وكان هو المرجع فى حل المشكلات التى واجهت الثوار حتى أصبحت هذه الثورة الشعبية مقرونة باسم عمر مكرم وفى هذا يقول الجبرتى :

" وانتصر محمد على بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا " فمحمد على مدين للشعب المصرى ولكبير الزعماء عمر مكرم

بتوليه حكم مصر .. وقد عرف قيمة القوة الشعبية والزعامة الشعبية وعمل على الإفادة منها إلى حين .. وكان عمر مكرم هو أعظم شخصية قيادية ظهرت من بين صفوف الشعب فى مطلع القرن الـ ١٩ .

وكان علينا أن ندرك هنا أن الثورة الشعبية التى قادها عمر مكرم كانت موجهة ضد أحمد خورشيد باشا بصفته الشخصية على أساس أنه أسرف إسرافا بعيداً فى الظلم ، ولم تكن الثورة موجهة ضد السلطان العثمانى .. ولعل ذلك يعود إلى أن المجتمع المصرى فى ذلك الوقت كان مجتمعاً دينياً ، فعمر مكرم كان يرجو الخلاص من ولاة السلطان لا من السلطان نفسه .. أنه كان يسعى للإنقاذ ولكنه لا يريد أن يكون ملكاً أو أميراً فليس هذا من شيم العلماء ولا حماة الشرع ولا رجال الدين .. لقد كانت رسالتهم أن يولوا على الناس أصلحهم ، وأن يشدوا أزر الصالحين ، ويحولوا بينهم وبين الحكام إذا مالت بهم نفوسهم إلى الطغيان .

ومن ناحية أخرى فإن السياسة العليا للدولة العثمانية منذ أن تم الغزو العسكرى العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ كانت تقضى بأن يكون والى مصر عثمانياً صرفاً بمعنى أن يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية .. فإذا تم اختيار عمر مكرم أو الشيخ الشرقاوى أو غيرهما من الزعماء واليا على مصر .. فإن مثل هذا الاختيار كان يعتبر فى ضوء ومفاهيم ذلك المجتمع الدينى ثورة على النظام الذى أخذت به الدولة ، ونقضاً لمبدأ أساسى وضعه سلطان الاسلام وخروجاً على طاعته .

وكان حرص عمر مكرم على نجاح ثورته سنة ١٨٠٥ أن يكون الوالى الذى ينتخبه الشعب عثمانيا ، وجاهر بهذا الرأى أمام الزعماء والأعيان حيث دعاهم إلى اجتماع عقد فى دار محمد على للبحث فى اختيار من يخلف الوالى أحمد خورشيد باشا ، حيث ذكر لهم أنه لابد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية فانظروا من تجدوه وتختاروه لهذا الأمر ليكون قائمقام حتى يتعين من طرف الدولة من يتعين ، فقال الجميع ... الرأى ما تراه ... فأشار إلى محمد على .

أما لماذا اتجه اختيار عمر مكرم إلى محمد على بالذات ليكون والياً على مصر...

فقد كانت هناك عدة اعتبارات أملت على عمر مكرم هذا الاختيار :-

أولها : أن محمد على كان قد رقى إلى مرتبة مماثلة أو قريبة من ذلك المنصب ولتفسير ذلك نقول أن أحمد خورشيد باشا الوالى العثمانى فى مصر كان قد سعى لدى الباب العالى لتعيين محمد على والياً على إحدى الولايات العثمانية ، وذلك أبان الصراع السافر الذى احتدم بين ذلك الوالى وبين محمد على ، وقد أراد أن يتخلص من غريمه ومنافسه بنقله نهائياً من مصر حتى يترك له الميدان خالياً ... وقد نجح خورشيد فى مسعاه فصدر مرسوم من السلطان بتعيين محمد على والياً على جدة .. وبالفعل تمت احتفالية ضمت محمد على والعلماء والمشايخ فى منزل سعيد أغا وذهب محمد على إلى داره بالازبكية وهو فى حلة الوالى الرسمية ... ومن ثم فإن محمد على كان فى عداد الولاة ودرجتهم ومرتبتهم ، وهو ان لم ينفذ هذا المرسوم ويرحل عن مصر فهو حق كسبه ولا يلحقه البطلان ، وأصبحت لديه الصلاحية والأهلية لشغل منصب والى مصر .

فإذا جاء عمر مكرم ونادى بمحمد على والياً على مصر فإن هذا الاختيار يكون مقبولاً من الناحية الشكلية ... وهناك الناحية الموضوعية التى جعلت عمر مكرم يؤثر محمد على بترشيحه والمناداة به والياً على مصر ... فقد كان هذا الالبانى يظهر عطفاً مصطنعاً على الشعب المصرى ومناصرة زائفة له ... ويبدى مواساة للجماهير إبان المحن التى تلاحقت عليها على يد أمراء المماليك والولاة العثمانيين... ولم يدر بخلد أحد من الشعب فى ذلك الوقت أن هذه المواساة وذلك العطف كان وسيلة لغاية أبعدهما السعى لوصوله إلى حكم مصر ... وبقدر ما كانت مظالم المماليك والعثمانيين ضد الشعب بقدر ماكان ذلك تهيأة للفرص التى يتودد فيها محمد على للشعب ويظهر عطفه على الجماهير المصرية ... فغدا فى نظر الشعب وقادته القائد المثالى الكامل العطوف على الجماهير العزوف عن الظلم .

وكـان محمد على كلمـا حان الليل أتخذ طـريقه سراً إلى دار عمـر مكرم يتملقه بـاعتباره كبير زعمـاء الشعـب ويتحدث إليه حديثاً يفيض بـأرقى مشـاعر العطف على الـشعب ويبدى نفوره من أساليب الجور والعسف التى يتبعها خورشيد باشا ، ويبذل لـ عمر مكرم الـوعود الخلابة بأنه إذا اتيح له حكم مصر فسيكون حريصاً على الـتزام العـدل والبعـد عن المظالـم والاقلاع عن إبتـزاز الأموال ، وأنـه سيضع نفسه تحت رقابة صارمة دقيقة من زعماء الشعب فلن يتخذ قراراً إلا بموافقتهم ... وأنه إذا حـاد عن الـطـريق الـسـوى كـان لـهم أن يعـزلـوه ... وأنـهم علـى ذلك لقادرين .

ونجد تفصيلاً لذلك فيما يقوله الجبرتى فى جزئه الرابع من عجائب الآثار :- " ومحمد علـى يداهن السيد عمـر سراً ويتملق إليه ويأتيه ويـراسله ويأتى إليه فى أواخـر الليل وفـى أوسـطه متـرددأ عليه فـى غـالب أوقـاته حتـى تم له الأمـر بعـد المعاهـدة والمعاقدة والايمان الكـاذبة على سيـره بالعدل وإقامـة الاحكام والشرائع ، والاقلاع عـن المظالم ولا يفعل أمراً إلا بمشورته ومـشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشـروط عزلـوه وأخرجـوه، وهم قادرون عـلى ذلك كمـا يفعلون الآن " وقـد اطمأن عمر مكرم إلـى هذه الوعـود وتوسم فى محمـد على الخير والـتزام العمل فكان إن اقترح أسمه على المشايخ والاعيان وأخذوا بإقتراحه بترشيحه .

وكان فى تقدير عمـر مكرم فى هذا الإجراء إنهاء للفـوضى السياسية ، وإراحة للشعب من أعمال السلب والنهب والجرائم الخلقية والركود الاقتصادى وغير ذلك من مساوئ رانت على قلوب الجماهير أمداً طويلاً .

واعتقد عمـر مكرم أن محمـد على هو الأمل المـرتجى ليحقق أمـال الشعب فى الاستقرار والأمن والهدوء وسيادة القانون والكف عن فرض الضرائب الجزافية .. ولكنه كـان فـى اعتقـاده من الـواهمين ..ولـم يكن للـرجل ذنب فـى ذلك بل صـدق وعود محمد على.

وقـد تبين لـ عمـر مكرم خطأ إعتقـاده وأتضح له أن محمـد على لا يقل جشعاً وإستبـداداً وظلماً عـن أحمد خـورشيد وغيره من الـولاة العثمـانيين ، وأدرك فـيما

بعد أنه إذا طـال بحكمه الأمد فسـيرهق المصريـين من أمرهم عسـراً وستتضاعف المظالم على يـديه .. وكان إدراك عمر مـكرم لهذه الحقيقـة بعد فوات الأوان .. إذ كان محمد على قد توطدت أقدامه فى مصر ورسخ حكمه فيها .

وهناك فرية تصل إلى حد الاسطورة حول تنصيب محمد على والياً على مصر فـى محـاوله من جـانب مـن روجوهـا وهم الـفرنسـيون حيث حاولـوا تفـريغ الـثورة الشعبية التى قادها عمر مكرم من إنتصارها فى تولية محمد على .

تقول الاسطـورة الفرنسية أن نـابليون كـانت له اليـد الطولـى فى تعيـين محمد علـى ، حيث كان قد أصبح إمبراطوراً علـى فرنسا وكـان يشعر بالحـنين إلى مصر وكان يـدرك أن الانجليز تحـالفـوا مع المـماليك ممـا يجعل تفردهـم بالسلطـة فى مصـر معناه أن تقع مصر فى يـد السلطة الانجليزيـة ، وأشاعت هذه الاسطورة أن نابليون أرسل إلـى مصـر المهنـدس " ماثيولسبس Mathieu Lesseps " والد فردينان دى لسبس مهندس قنـاة السويس –لهذه المهمـة السرية فجـاء إلى مصر وأتصل عن كثب بالشخصيات المتصارعة على الحكم فى مصر واستشف ببصيرته النافذة أن محمد على هو سيد الغد فرشحه لحكومته وأخذت الحكومة الفرنسية بهـذا الترشيح، وبذلت مساعيهـا الدبلوماسية فى الأسـتانة حتى صدر فرمان (أى مرسوم) من السلطان بتعيين محمد على والياً على مصر ..

ولكن المصادر والمـراجع التاريخيـة لا تشير علـى الاطلاق إلى هذه الـرواية التى ابتدعـها خيال الفـرنسيين ، ولو كـان لها ظل من الحقيقـة لما أغفلتهـا تلك المصادر وهـذه المراجع وبخـاصة لأنهـا فرنسية ولأنهـا معاصـرة للأحداث الـتى تتكلم عنها وقـد قرر محـمد شفيق غربـال عميد المؤرخين المصريـين فى تـاريخ محمـد على وكذلك محمد فؤاد شـكرى الذى تخصص فى الـكتابة عن حقبة الحـملة الفرنسية وظهـور محمـد علـى وكذلـك عبـد الـرحمن الـرافعـى ... قـرروا جـميعـاً أن تلك الاسطـورة من وحى الخيـال الفـرنسـى ... وأنها تهـدف إلى نـزع الفضل عـن عمر مكرم والشعب المصرى فى تولية محمد على باشا .

فلم يعثـر قط فى محفـوظات وزارة الخارجيـة الفرنسيـة فى باريس فى القسم

الخاص بـأوراق السفـارة الفرنسية فـى الأستانـة على أيـة وثيقة يشتم منهـا قيام أحـد السفـراء الفرنسيين فـى الأستانة بـأية خطوة أو مسعى لـدى دوائر البـاب العـالى لتأييد هذا الالبـانى أو تدعيـم مركزه أو التوصية بتعيينه والياً علـى مصر ... ويؤكد شفيق غربال ذلك فى كتابه الذى وضعه عن " محمد على " بقوله :-

إنعدم التـأثير الأوروبـى إنعدامـاً يكاد يكون تامـاً فى الحـوادث التى جـرت فى مصر فيمـا بين سنتى ١٨٠١ ، ١٨٠٥ ، والتى انتهت ببلوغ محمد على ولاية الأمر . ولا صحـة لما إختلقوه من بحث القنصل الفرنسى عن رجل جـدير بعطف الحكومة الفرنسية واهتدائه إلى محمد علـى وكتابته لحكومته بهذا التـرشيح وتأييد فرنسا لذلك لـدى البـاب العالى –لم يـحدث شئ من هذا قطعـاً ، ولم يتجاوزهم القنصل الفرنسى حمايـة نفسه ومـواطنيه فـى الاضطـراب السـائد فـى القاهـرة ... وقد ضعف النفوذ الفـرنسى فى القسطنطينيـة فى تلك السنوات لـدرجة أن حكومة البـاب العالى رفضت الاعتراف بنابليون امبراطوراً على الفرنسيين (١)

ويقينـاً الـرواية الفـرنسيـة خيالـية لا أصل لهـا ولا يؤيـدها منـطق الحوادث ولا تستنـد إلى مـصدر مـوثوق بـصحته وكمـا ترد فـى المصـادر المعتمدة ... فـالثابت تاريخيـاً أن محمد علـى لم يصل إلى منـصب الولايـة إلا بفضل تحببه إلـى الشعب المصـرى وزعمـائه واختيـارهم إيـاه والياً ... ولتبـديـد هـذه الاسطـورة نقـول أن ماثيـولسبس وصل إلى مـصر فـى أواخر شهـر مايـو ١٨٠٣م وأقام بـها حتـى شهر نوفمبـر ١٨٠٤م ... أى أنه أرتحل قبل أن تقوم الـثورة الشعبيـة بزعامـة عمر مكرم فى مايو ١٨٠٥م.

وتدل تقـارير مـاثيولسبس التـى بعث بهـا إلى وزارة الخـارجية الفـرنسيـة أثناء اقامته فى مصر على أنه كان قليـل الثقة فى مقدرة محمد على حيث قرر فيها أن هذا الالبانى لا يتمتع بعبقرية أو نبوغ ووصفه فى أحد تقاريره بأنه لص وأنه على شاكلة قطاع الطرق وقد ذكر أن المال هو المحرك الأول لتصرفاته .

(١) كان ماثيولسبس قنصل فرنسا فى مصر فى ذلك الوقت سيئ الخلق وأتخذ من منـزله حانة يبيع فيها بأسعار مخفضة النبيذ وغيره من أنواع الخمور مستغلاً الاعفاءات الجمركية التى تمنح لأعضاء السلك القنصلى .. وكان يقدم بعض الكميات من الخمور إلى الرؤسـاء الالبانيين بمثابة هدايا لقاء وعدهم بعدم الاعتداء عليه وعلى الرعايا الفرنسيين .

مساندة عمر مكرم لأزمات محمد على :

واجهت محمد على فى بداية حكمه مجموعة من الأزمات ولولا مساندة عمر مكرم لما كان لمحمد على أن يجتازها .

أول هذه المشكلات التى واجهت محمد على كان الهجوم الذى دبره المماليك على القاهرة ليستولوا على الحكم عنوة واختاروا يوم ١٦ من أغسطس ١٨٠٥ موعداً لتنفيذ الهجوم .. وكان هو اليوم المحدد للاحتفال بوفاء النيل حيث يخرج محمد على وجنوده إلى مصر القديمة للاشتراك فى الحفل .. وتكون القاهرة خالية من المدافعين وأراد المماليك استمالة عمر مكرم ليقف إلى جانبهم ضد محمد على ولكنه رفض التعاون معهم واتفق الاثنان عمر مكرم ومحمد على على استدراج المماليك إلى داخل القاهرة ، وطلب عمر مكرم من الأهالى الذين يحرسون باب الفتوح أن يتركوا المماليك يدخلون المدينة .. وفى اليوم المحدد لم يذهب محمد على ولا عمر مكرم إلى مصر القديمة لحضور الإحتفال .

ومع شروق شمس اليوم المحدد دخل المماليك من باب الفتوح وساروا بأسلحتهم مخترقين شوارع العاصمة فى حشود عسكرية وتسير أمامهم موسيقاهم .. وبلغت بهم الغفلة ان ظنوا أن الشعب تجاوب معهم واتجه رؤساؤهم إلى دار عمر مكرم فرفض مقابلتهم فذهبوا إلى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر .. وهناك وافاهم عمر مكرم وطلبوا تأليب الشعب على محمد على .. فأوضح لهم عمر مكرم ألا ينتظروا منه عوناً أو تأييداً وأنكر عليهم حركتهم .. فأدركوا أن الزعامة الشعبية لا تؤيدهم وهبطت روحهم المعنوية .. ودار القتال رهيباً فى شوارع القاهرة بين المماليك وبين جنود محمد على وعمل عمر مكرم على تجنيب الشعب ويلات هذا القتال الذى انتهى بهزيمة منكرة لقيها المماليك وسيق الاسرى منهم وحملت رؤوس القتلى إلى محمد على الذى أمر باستدعاء الجزارين فسلخوا الرؤوس أمام الأسرى ثم أحضر " جماعة من الاسكافيه فحشوها تبناً وخيطوها " ثم قتل جميع الأسرى وفعل برؤوسهم ما فعله برؤوس القتلى ووضعها فى صناديق وشحنت إلى الأستانة.

ولا شك أن الدور الذى قام به عمر مكرم فى التخلى عن قضية المماليك كان

له أثره فى فشل الحركة المملوكية إذ لو كان الشعب قد إنضم إلى المماليك لتعذر على جنود محمد على الحرب فى جبهتين فى وقت واحد قد ساعد المصريون جنود محمد على فى التصدى للمماليك .

حيث كان المصريون فى نشوة الانتصار على الباشا السابق أحمد خورشيد باشا وروح النضال متأججة فيهم وكانت الأسلحة التى لاتزال فى أيدى القاهريين تنفيذاً للأمر الذى كان عمر مكرم أصدره باستمرار الناس على الحذر والسهر وضبط الجهات.

أما الأزمة الثانية التى واجهت محمد على فقد كانت مشكلة نقله والياً على سالونيك فى يونيو ١٨٠٦م ، وأرسل الباب العالى أسطولاً بقيادة صالح قوبدان للاشراف على تنفيذ الوضع السياسى الجديد فى مصر ، ولم تجر العادة أن يكون إستبدال والى بوالى مقروناً بمثل هذه المظاهرة الحربية .

ولما وصل صالح باشا إلى الاسكندرية أرسل كإجراء تمهيدى خطاباً إلى عمر مكرم فيه دعوة صريحة لأهل القاهرة وعلمائها بطاعة أمر السلطان وحمل السلاح فى وجه محمد على وجنوده إذا رفضوا مغادرة القاهرة ... وتلقى عمر مكرم خطاباً بهذا المعنى من محمد بك الألفى أما محمد على فكان قد وقف على تفاصيل هذا التغيير السياسى وعول على التمسك ببقائه فى مصر ، ولو أدى الأمر إلى محاربة السلطان ، وإتجه فكره منذ ظهور الأزمة إلى عمر مكرم وأفضى اليه برغبته فى عدم تنفيذ الفرمان والاستعانة بالزعامة الشعبية وتعبئة الرأى العام للوقوف إلى جانبه وإتخاذ إجراءات عسكرية لمواجهة تطورات الموقف وفى نفس الوقت يتظاهر محمد على بالامتثال لأوامر السلطان وطلب محمد على من عمر مكرم مساندته فى هذه الأزمة فلقى إستجابة سريعة .

أرسل صالح باشا الفرمان إلى محمد على فتظاهر بأنه مستعد لتنفيذ أمر النقل فوراً ، ولكنه انتحل العذر التقليدى وهو ضرورة دفع المرتبات المتأخرة للجنود قبل رحيله عن مصر وتبلغ عشرين ألف كيس ، وقرر أن موارد الحكومة تعجز عن تدبير هذا المبلغ فى أمد وجيز، واستدعى محمد على بعد ذلك عمر مكرم والمشايخ اليه وأطلعهم على الفرمان السلطانى وأن الأمراء المماليك تعهدوا

للسلطان بخدمة الدولة والحرمين الشريفين ودفع الجزية وتأمين البلاد ، وأن السلطان عفا عنهم وفق هذه الشروط بشرط أن يضمن المشايخ والعلماء عهدهم ، وطلب محمد على من العلماء التفكير ملياً فى قيامهم بهذا الضمان ... وكان محمد على مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن عمر مكرم سينجح فى إقناع المشايخ بأن يقفوا موقفاً إيجابياً فى هذه الأزمة فيعلنوا معارضتهم صريحة فى عودة الأمراء المماليك إلى الحكم تأسيساً على أنهم لايستطيعون ضمان سلوك المماليك ويسجلون تمسكهم ببقاء محمد على والياً على مصر .

وكان الطريق أمام عمر مكرم ميسراً معبداً لسببين أحدهما اقتصادى والآخر سياسى اجتماعى .. أما السبب الاقتصادى فإن محمد على كان قد أغدق نعمة ظاهرة وباطنة على المشايخ علماء الأزهر، فوزع إلتزام القرى التى كانت فى أيدى المماليك عليهم وأصبح الرزق يأتيهم رغداً من كل مكان ، وكان محمد على لايزال فى حاجة إلى تأييد المشايخ له فأستكثر لهم من حصص الالتزام ، ونجم عن ذلك أن تلاقت مصلحتهم مع بقاء محمد على فى مصر خوفاً من أن يعصف المماليك بهذه الإمتيازات وكان محمد على قد دأب لمصلحته على طلب المشورة من المشايخ فى شئون الحكم وظفر هؤلاء فى أعين الجماهير بمركز سياسى واجتماعى مرموق .

وعقد عمر مكرم اجتماعاً فى داره شهده السكرتير الخاص لمحمد على ومترجم تركى واشترك الثلاثة فى وضع صياغة مذكرة تكتب باسم المشايخ إلى السلطان.. وفى اليوم التالى أرسل محمد على هذه المذكرة إلى الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر وطلب منه توقيع المشايخ عليها " فلم تسعهم المخالفة " .

وإنطوت هذه المذكرة على إلتماس من العلماء بإعفائهم من كفالتهم للأمراء المماليك " لأن شرط الكفيل قدرته على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك " .

وأخذت المذكرة تسرد أمثلة من مظالم المماليك فى مصر ثم قالت " ولا يمكننا التكفل والتعهد لأننا لانطلع على مافى السرائر وما هو مستكين فى الضمائر ، فنرجو عدم المؤاخذة فى الأمور التى لا قدرة لنا عليها ، لأننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة المتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم " .

ودافعت المذكرة عن محمد على وسياسته فى مصر ويلاحظ أن المذكرة كانت

حريصة على إعلان ولاء المشايخ للسلطان على أساس أنه خليفة المسلمين وانصب الإلتماس على الإعتراض على نقل محمد على وعدم إعادة المماليك إلى حكم مصر ورفض العلماء كفالة المماليك وقد كتبت نسختان من هذه المذكرة أرسلت إحداهما إلى السلطان والأخرى إلى صالح باشا قبودان فى الاسكندرية .

لم يكترث صالح باشا بهذه المذكرة واعتقد أن فى مقدوره تنفيذ الفرمانات التى حملها معه بتغيير الوضع السياسى فى مصر ، وكان مسرفاً فى تفاؤله على أساس أن محمد على لا يجرؤ على أن يكون للسلطان عصياً وأن المماليك سيستفيدون من هذه الفرصة لإستعادة سلطتهم فيوحدون صفوفهم ، واعتقد أن مماليك الوجه القبلى سوف ينفرون إلى محمد بك الألفى ويشكلون جبهة متحدة ضد محمد على .

تأسيساً على هذا الاعتقاد أرسل صالح باشا قبودان خطاباً إلى السيد عمر مكرم وخطاباً ثانياً إلى الشيخ محمد السادات وخطاباً ثالثاً إلى المشايخ عامة .. وكلها على نسق واحد وباللغة العربية وفيها الخبر بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته سالونيك وولاية موسى باشا والى سالونيك ولاية مصر ... ولم يكد المشايخ يتلقون الخطاب المرسل إليهم حتى توافدوا على دار عمر مكرم وعقدوا اجتماعاً طارئاً ورأوا أن ينتقلوا بكامل هيئتهم إلى محمد على ولما استقروا لمجلسه دارت مناقشة أورد الجبرتى طرفاً منها على النحو الآتى :-

محمد على : هل وصلت إليكم المراسلات الواردة صحبة السلحدار .

المشايخ : نعم

محمد على : وما رأيكم فى ذلك

الشيخ عبد الله الشرقاوى : ليس لنا رأى والرأى ما تراه .. ونحن الجميع على رأيك.

محمد على : فى غد أبعث إليكم صورة تكتبونها فى رد الجواب .

وفى اليوم التإلى بعث محمد على لهم بصورة عريضة ، نشر الجبرتى ، مضمونها أن أهل مصر يخشون أن تعود الأوضاع مسيرتها الأولى .. وكتب العلماء عريضة ثانية يطلبون بقاء محمد على ..

وفى ذلك الوقت دارت بين قوات المماليك بقيادة محمد الألفى ومحمد على معركة دامية فى النجيلة (على الشاطئ الغربى لفرع رشيد جنوبى الرحمانية وانتصر المماليك انتصاراً حاسماً والقوا بجنود محمد على فى النيل ، ويقول الجبرتى أن نهر النيل إمتلأ سطحه بطراطير الجند الدلاة –حيث كان من عاداتهم أن يضع كل منهم فوق رأسه طرطوراً –وفى الوقت نفسه كان جواسيس قبطان باشا ومحمد بك الالفى يحرضون أهل دمنهور على الثورة فى وجه محمد على ، وهنا ظهر دور عمر مكرم فى توعية الجماهير فى ذلك الوقت العصيب ووجه نداءه إلى أهل دمنهور الذين استمعوا إلى توجيهاته وبفضل هذه التوجيهات عجز المماليك عن الاستيلاء عليها رغم امتداد حصارهم لها أكثر من ثلاثة أشهر.

وكان محمد على قد عرف نقط الضعف فى القبطان باشا وهى شراهته لجمع المال لنفسه فأغدق عليه الكثير من الرشاوى والهدايا .. وفى نفس الوقت كان رسل محمد على فى الأستانة يبدون إستعداده لدفع مزيد من الاموال ثمناً لشراء موافقة السلطان على إبقائه فى مصر .. ودارت إتصالات بين القبطان باشا وبين الباب العالى أسفرت عن تثبيت محمد على فى منصبه بشروط ثلاثة هى :-

١- أن يضع المشايخ عريضة جديدة يقررون فيها تمسكهم بمحمد على وكان الغرض من هذا الشرط هو تغطية موقف السلطان وإخفاء فشله فى نقل محمد على .
٢- أما الشرط الثانى فقيام محمد على بدفع أربعة آلاف كيس أى عشرين ألف جنيه .
٣- الشرط الثالث أن يقيم أبنه إبراهيم رهينة فى الأستانة حتى يتم دفع المبلغ.

وقد قبل محمد على هذه الشروط ، وكتب المشايخ عريضة ثالثة ومن بين ثنايا السطور التى كتبها الجبرتى يتضح دور عمر مكرم فى هذه المذكرة فهو يقول : إن

هذا العـرضحال " لم يطلع عليه إلا بعض الأفراد المتصدرين " وكان عمر مكرم هو رأس المتصدرين وأكثر زعماء الشعب إلتصاقاً بمحمد على .

وصدر الفـرمان بتثبيت محمـد على والياً على مصـر ، وتلى هـذا المرسـوم فى حفل كبير وكان مما جـاء فيه " إبقاء محمد على باشـا واستمراره على ولاية مصر حيث أن الخاصـة والعامـة راضيـة ... بأحكامه وعدله بشهـادة العلمـاء وأشراف الناس وقبلنا رجائهم وشهادتهم .."

أمـا المشكلـة الثالثة التى واجهت محـمد علـى فهى حـملة " فـريزر " فـى ربيع ١٨٠٧م والتى تحركت من جزيرة صقلية ... وكان الهدف منها :-

إحتلال مصر لمنع نزول حملة فـرنسـية جـديدة فـى هذه البـلاد لأن بريطانيا اعتقدت أنها ارتكبت حماقة كبرى بجـلاء القوات البريطانيـة عن مصر فى مارس ١٨٠٣ (١)

وقـد ظهرت حـملة فـريزر تجـاه الاسكنـدرية فـى ١٦ مارس ١٨٠٧، وبـدأ إنزال الجنود فـى اليـوم التـإلى ولـقى الغـزاة مقاومـة من أهل الاسكندريـة الذيـن وقفوا بـأسلحتهم خلف أسـوار المدينـة ، ولم يكن حـاكمها إلـى ذلك الوقت تـابعاً لحكومة القاهرة ، بل كان خاضعاً مبـاشرة للباب العإلى وكان رجلاً تـركيا يسمى أمين أغا، اسـتطاع قنصل بريطـانيا العام رشوتـه فسلم الاسكندرية ودخلهـا جنود الحملة فى ٢٠ مارس ١٨٠٧م.

وقـد تلقى السـيد عمـر مكرم فـى ٢ أبريل ١٨٠٧ رسـالة مـن أهل دمنهور قـالوا فيها أن أفراد حامية الاسكندرية قد ولوا الأدبار بمجـرد وصول البريطانيين إليها ، وأنهم قـد حضروا إلى دمنهور واستـولى الذعر على كـاشف المدينة ... وقد حمل الشعـب المصـرى عبء الكفـاح لصـد العـدوان حيث عقـدت عـدة إجتمـاعـات كـان بعضهـا فى منزل عـمر مكرم والبعض الأخر فى منـزل نائب محـمد على ، وحضر هـذه الاجتمـاعـات كبـار المشـايخ وكتبـوا إلى محـمد علـى وكان فـى الصعيـد يقاتل المـمـاليك يطلبـون منه العـودة ومن معه مـن الجنـود ليستعـد لما هـو أولـى وأحق بالاهتمام .

(١) كانت قيادة الحملة بقيادة Major General Mackevrie Frazer

ولكن محمد على تملكه فزع شديد يصفه الجبرتى فى أكثر من موضع فيقول:

" داخله وهم كبير ، ارتبك فى أمره ، إنحلت عزائمه وعزم على العودة متثاقلاً، متباطئاً فى السير ظناً منه أن البريطانيين يسبقونه إلى القاهرة فيسير مشرفاً إلى الشام ويكون غيابه عن القاهرة والوجه البحرى مبرراً له أمام الباب العإلى فى عدم اشتباكه مع البريطانيين .

لم ينتظر عمر مكرم قدوم محمد على بل تولى قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها ، فطلب من الجماهير التأهب لقتال الانجليز وأمرهم بحمل السلاح ، كما أمر بتعطيل الدراسة فى الأزهر ، وحضر زعماء الشعب اجتماعاً كبيراً فى ٧ من أبريل ١٨٠٧ فى بيت القاضى ، حضره عمر مكرم والشيخ عبدالله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير وغيرهم من كبار المشايخ ، وبدأ الجهاد فى كل مكان لمواجهة الغزو البريطانى وإقامة الاستحكامات وكان السيد عمر مكرم يذهب فى صبيحة كل يوم تتبعه جماهير كثيفة العدد من الشعب إلى حيث يشتغل العمال فى اقامة الاستحكامات حيث أعدت له خيمة وكان فى بعض الأحيان يظل هناك طوال النهار وكان حضوره يثير الحماس والشجاعة فى نفوس الناس جميعاً.

قام عمر مكرم بهذا الدور القيادى ومحمد على لايزال فى الصعيد يتلكأ فى العودة إلى القاهرة ودون أن يكون له أثر فى توجيه الشعب أو استنفاره للقتال ... والتصق المصريون بزعيمهم عمر مكرم واستجابوا لندائه ونفروا خفافاً وثقالاً للجهاد .

وكان نصر المصريين فى المعركة عاملاً حاسماً فى تثبيت كرسى محمد على فى الحكم على مصر (١) .

وكان هذا النصر والدور الذى لعبه عمر مكرم سبباً فى غيرة محمد على منه بل خوفه على مركزه ، وكان رد محمد على عند عودته من الصعيد لمواجهة

(١) عند الجهاد حقق المصريون نصراً مؤزراً على البريطانيين وقتلوا منهم الكثير وكان من بين القتلى قائد القوة البريطانية التى هاجمت رشيد وهو الجنرال ووكوب Wauchopeوبلغت خسائر البريطانيين على النحو التإلى : ١٧٠ قتيلاً ، ٢٥٠ جريحاً ، ١١٢٠ أسيراً أسرهم المصريون .

وقد اطاحت معركة رشيد بهيبة الانجليز التى كانوا قد اكتسبوها فى أعين المصريين من انتصارهم الساحق على الأسطول الفرنسى فى معركة ابى قير البحرية وفى نجاحهم فى إجلاء الفرنسيين عن مصر .

وقد قرر فريزر قائد عام الحملة فى تقرير رفعه إلى وزارة الحرب البريطانية أن هذه الهزيمة كانت "ضربة قاسية غير متوقعة أصابت الانجليز .. أما قنصل بريطانيا العام فقد قرر تعليقا على انتصار المصريين فى معركة رشيد أن العالم بأسره ستعتريه دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد إستعصت على جيش أوروبى حديث .

الموقف بعد نبـأ إنتصار رشيد على عـمر مكرم والعلماء صدمـة كبيرة لهم وبالذات لعمر مكرم .

فقد قال العلماء وعلى رأسهم عمر مكرم :-

" إنا نخرج جميعاً للجهاد مع الرعية والعسكر" فكانت اجابة محمد على رهيبة مفـزعة إذ قـال لهم " ليس على رعيـة البلد خروج وإنمـا عليهم المسـاعدة بـالمال لعلائف العسكر" وكانت هذه الاجابة إعلانا صريحاً بإنه لايريد من الشعب تدخلاً فى شئون الحكم أو قياما بواجب الدفاع عن البلاد ، وأن على أفراد الشعب –أو الرعيـة على حد تعبيـره وهو تعبير يـدل على الاستعلاء- أن يدفعـوا مايطلب منهم من أموال إلى خزانة الحكومة والحكومة هى التى تقوم بالدفاع عن البلاد .

وهكذا أظهـر محمـد علـى مـا كـانت تجيش به نفسـه من رغبـة جـامحـة فـى الاستبداد وإقصاء المصريين عن الاشتراك فى شئون وطنهم .

ولاشك أن بدايـة نفور عـمر مكـرم من محـمد علـى كانـت تلك اللحظـة .. فقد صـدم صـدمـة شـديـدة لهـذه الاجـابـة ولكنه أسـرهـا فـى نفسـه ولم يبـدهـا له ... والزعيـم الذى يؤتـى حظاً مـوفوراً من الفصـاحة السيـاسية لايبادر إلى مخـاصمة غيره من أول وهلة .

ومن الأمور المسلم بها أن الزعامة الرشيدة تتطلب من صاحبها رصيداً ضخماً من الصبـر والمثابـرة والقدرة علـى كبح جماح النفس... وكذلك كـانت زعامـة عمر مكرم.

واجتـمع محـمد علـى بعمـر مكـرم حيث طلب منه تـدبيـر خـمسـة آلاف جنيه لتغطية نفقـات الجنود الذين يعتزم ارسـالهم إلى رشيد لمقاتلة البريطانيين ، وقبل عـمر مـكرم القـيام بهـذة المهمـة ، وقد اتهـم البعض أن عـمر مـكرم قـد أصبح أداة طيـعة فى يد محـمد على... ولكن عمـر مكرم رأى أن مصر تـواجه محنة وعليه ان يؤيد محمد على ثم ينظر فى الأمر طبقاً لمجرى الأحداث .

ولم تلبث جماهير القاهرة أن بدأت تتعرض لبعض المظالم على يد بعض جنود محـمد على ، وبـدأت عمليـة من المصـادرات وفرض المغـارم على طـوائف الشعب ، ولاذت جموع الشعب بالسيد عمر مكرم تطلب إليه التدخل لدى محمد على لوقف

هذه المظالم فكان الزعيم عند حسن ظن الشعب به .. استجاب لطلبه وذهب إلى امبابة حيث قابل محمد على وتحدث معه فى رفع الإتاوات وقبل محمد على رسالته وكتب كتابا بذلك إلى تلك الطوائف .

ولعل محمد على أراد ألا يغضب عمر مكرم .. وأن يحاول أن يضمن الزعامة الشعبية إلى جانبه لحين التخلص من مشكلاته .. سواء المماليك .. أو المشكلات المالية .. ولكن لم تلبث مجموعة من العوامل ساعدت الوالى الجديد محمد على على التخلص من الزعامة الشعبية كان فى مقدمتها :

١- انقسام الزعماء

بدأ الانقسام يدب بين كبار العلماء حول مسائل مالية ، إذ تنافسوا على منصب ناظر الجامع الأزهر وهو غير منصب شيخ الأزهر وجرت العادة إبان الحكم العثمانى أن يتقلد منصب ناظر الأزهر أحد الأمراء المماليك لما تدره هذه الوظيفة على شاغلها من ايراد ضخم فلما جاء الفرنسيون بحملتهم سنة ١٧٩٨ وأطاحوا بحكومة المماليك شغر ذلك المنصب والحق بمشيخة الأزهر إلى أن تطلع سنة ١٨٠٥ لشغله الشيخ محمد الأمير واراد انتزاعه من الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وانقسم العلماء فريقين يناصر كل فريق مرشحه .

وحاول الشيخ عبد الرحمن السجينى تنقية الجو بين العلماء ولكنه فشل وظل هذا الموضوع فى جبهة الزعماء إلى أن أصدر محمد على أمرا فى ٢٠ من سبتمبر ١٨٠٦ بالتحجير على الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والتحجير فى اصطلاح ذلك الوقت معناه تحديد اقامته فكان لا يسمح له بمبارحة منزله ولو كان الخروج لأداء صلاة الجمعة وإمتثل الشيخ الشرقاوى لهذا الأمر ولم يجد ناصراً .. إلا أن قاضى القضاة العثمانى واسمه عارف أفندى تشفع له عند محمد على الذى رد عليه بقوله :

" أنا لا ذنب لى فى التحجير عليه ، وإنما ذلك من تفاقمهم مع بعضهم، فأستأذنه فى مصالحتهم وحاول مصالحتهم .. ولكن ظل مافى القلب فى القلب".

ولا ريب أن محمد على كان سعيداً بهذا الانقسام وحاول استغلاله فى الوقت

المناسب ليتخلص من الزعامة الشعبية .. كما عمل محمد على فى نفس الوقت على زيادة إفسادهم حيث أفتتنوا بالدنيا ، وهجروا مدارسة العلم ، وانصرفوا عن أمور الدين من حيث وعظ الأهالى وتلقينهم أصول العبادة وحاكوا الأمراء المماليك فى معيشتهم وملأوا بيوتهم بالخدم ، والأعوان واستبدت بهم فتنة المال ، فصاروا يتقاضون الأجور العالية فى شكل هدايا وعطايا من الجماهير فى مقابل توسطهم لدى السلطات الحاكمة .. بعد أن كانوا فى وظيفتهم التقليدية فى المجتمع لا يبتغون جزاء ولا شكورا .

٢- حقد الزعماء على كبيرهم عمر مكرم :

كان من العوامل الحاسمة فى نجاح محمد على فى اقصاء الزعامة الشعبية عن الميدان السياسى الحقد الدفين الذى كان يتأجج فى صدور الزعماء ، على السيد عمر مكرم لما ظفر به من منزلة سامية تمثلت فى التفاف الشعب حوله ، وإرتفع إلى مركز الصدارة بين الزعماء ، وكان قد بلغ هذه المكانة عن جدارة واستحقاق إجتمعت فيه فضائل سياسية مجردة من الأهواء والمطامع الشخصية ومبادئ سامية ظل حفيظا عليها ، وشجاعة صادقة لا تخبو نارها ، واستطاع محمد على أن يستغل ذلك الحقد ففصل الزعماء عن كبيرهم عمر مكرم ثم ضمهم اليه فى كتلة متراصة.. وسقط العلماء فى المصيدة إشفاء لغليل حقدهم على عمر مكرم

وكان محمد على يدرك أنه فى القضاء على عمر مكرم قضاء عليهم جميعاً .. وإنهيار للزعامة الشعبية .

وبدءاً من أغسطس عام ١٨٠٨ بدأ الصدام الحقيقى بين محمد على والزعامة الشعبية وعلى رأسها عمر مكرم وبدأ محمد على يهددهم بتجريدهم من حصص الالتزام .

وفى يونيو ١٨٠٩ استن محمد على ضرائب جديدة على المصوغات الذهبية والفضية وضرائب على سائر أنواع السلع وأثارت هذه الضرائب الجديدة سكان القاهرة .. وتصادف أن القى رجال الشرطة القبض على أحد طلبة الأزهر وكان يمت بصلة القرابة إلى أحد علمائه وحاول علماء الأزهر التدخل فلم تقبل وساطتهم .. فازداد هياج الناس وتوجه العامة وأهل الطالب إلى الجامع الأزهر ..

ورغم اعتكاف عمر مكرم إلا أن الـزعماء توجهوا إليه وتعاهدوا على الوقوف صفاً واحداً فى وجه محمد على ..وحاول محمد على التفاهم معهم ولكنهم رفضوا الذهاب إليه إلا بعد إلغاء الضرائب المستحدثة والافراج عن طالب الأزهر المعتقل .. ووعدوا سكرتيره الذى كان مراسله إليهم أنهم لن يؤلبوا الشعب على الوالى بل سيعتكفون فى منازلهم حتى يقض الله أمراً كان مفعولاً ، ولا يحمل هذا الموقف معنى السلبية لأن الاعتكاف أمر جد خطير ، فهو بمثابة قطع علنى للعلاقات بين زعماء الشعب وبين الحاكم ، واعلان صريح بأن محمد على قد خان أمانة الحكم ونقض الميثاق الذى أخذوه عليه عند اختياره حاكما وكان الزعماء فى هذا الموقف مثلاً طيباً للتضامن والتماسك .

وحاول محمد على استمالة الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى حيث كانا على حقد دفين على عمر مكرم ، وقد خرجا على وحدة الصف وعلم محمد على أن عمر مكرم ثابت على رأيه ولا يريد مقابلته وخشى بأن يؤلب عمر مكرم الشعب ضده ويقتلعه من الحكم كما اقتلع خورشيد باشا من قبله أو كما يقول الجبرتى " كان محمد على يخشى صولته ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره ، إن شاء جمعهم ، وإن شاء فرقهم ، وهو الذى قام بنصرة ومساعدة واعانة وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الاقليم ويرى أنه إن شاء فعل بنقيض ذلك .

واستغل محمد على المطامع الشخصية التى كانت تجيش فى نفوس غالبية الزعماء وتزاحمهم على التنظر على أوقاف الأزهر ، كما أستغل التنافر والتحاسم بينهم والحقد الذى كان يفتعل فى نفوس فريق منهم على عمر مكرم ، ونجح محمد على فى استمالة معظم الزعماء وأوغر صدورهم على عمر مكرم .. وحاول محمد على استمالة عمر مكرم بكل المغريات ولكنه أصر على موقفه من إجراءات محمد على التوسعية ، وبدأ محمد على يرسل جواسيسه يحيطون بمنزل عمر مكرم وليعرف من يزورونه وتحركاته .. ولما حاول السلطان مطالبة محمد على بتسوية بعض مستحقاته قام محمد على بكتابة مذكرة معظم ماجاء بها غير صحيح ، ووضع العلماء والمشايخ اختامهم عليها ولما أرسلت المذكرة إلى عمر مكرم بصفته نقيباً للأشراف للتوقيع عليها امتنع عمر مكرم ولم يتشكك فى

صحـة الأرقـام فحسب بل اتهـم محمـد علـى صـراحـة بـاختلاس الأمـوال العـامـة والتدليس على الحكومة العثمانية .

وأشتـد حنق محمـد على حـين نقل إليه ماقـاله عمر مكرم وطلب أن يجتمع به ولكن عمر مكرم اشترط إلغاء جميع الضرائب التى فرضها مؤخراً على الشعب .. وألح محمد على على مقابلته فقال عمر مكرم " اذا كان لا مناص من الإجتماع به فإنى اقابله فى منـزل الشيخ السادات لتكون المقابلـة علـى سواء " أما طلوعى إليه (يقصد إلى القلعة) فلا يكون " .

وهنا بلغت الأزمة منتهاهـا إذ أعتبر محمد على هـذا الشرط تحقيراً من شأنه وقال : " أنه بلغ به (يقصد عمـر مكرم) أن يـزدرينى ويـأمرنـى بالنـزول من محل سكنى إلى بيوت الناس " .

وفـى ٩ أغسـطس ١٨٠٩ نـزل محمـد علـى إلـى منـزل ابنه إبـراهيم بـالأزبكيـة واسـتدعـى القاضـى والمشـايخ وطلب عقـد مجلس شرع ليفصل فـى النـزاع الذى شجـر بينه وبـين عمر مكرم واتخذ محمـدعلى من المشايخ شهـود يركن إليهم فى جولته النهائية ليحسم النزاع بينه وبين عمر مكرم .

وطلب عمـر مكـرم للمثول بالمجلس ولكنه أشتم رائحـة التآمـر عليـه فاعـتذر بمرضه عن الحضـور وطلب محمد علـى من قاض القـضاة أن يثبت امتناعه وأمر بعـزله من نقابـة الاشراف ونفيه فـوراً من القاهـرة وفى نفس الوقت أصـدر قراراً بتعيين الشيخ السادات نقيباً للأشراف .

وتظاهـر الزعماء بـالعطف على عمـر مكرم فتشفعـوا فى إمهاله ثلاثة أيام فى ترتيب شئـون أسرته قبل رحيله ، فاجـابهم محمد إلى ذلك ، ثم سـألوا أن يأذن له فـى الاقامـة فى أسيـوط وهـى مسقط رأسه لتكون منفى له ، فـرفض وقال أن له الخيرة بين دمياط وبين الاسكندرية وأنفض المجلس على ذلك .

لم يهتـز الـزعيم بل ظل ثـابت العقيـدة سليم الـوجـدان ولـم يضعف أمـام هـذه الصدمة ولـم تخذله شجاعته لحظة واحدة فقد قـال : " أما منصب النقـابة فإنى راغب عنه وزاهد فيه وليس فيه إلا التعب وأمـا النفى فهو غاية مطلبى وأرتاح من هذه الورطة " .

وأظهـر إبـاء وشـمماً وعلـو نفس فلم يتقـدم بمطـالب شخصيـة أو بـالتمـاس

لتخفيف الحكم بالاقتصار مثلاُ على عزله من نقابة الأشراف والسماح له بالإقامة فى القاهرة مع ذويه وكان كل ماقاله بعد قرار العزل والنفى أنه إذا رفض محمد على أن يسمح له بالسفر إلى أسيوط فإنه يفضل أن يكون النفى إلى بلدة ليست تحت حكم محمد على واقترح عمر مكرم مدينة درنه فى طرابلس الغرب أو الطور ولكن أبى محمد على أن ينزل عن رأيه وتمسك بأن تكون دمياط منفى له .

واستدعى عمر مكرم حرس نقابة الأشراف وطلب منهم الذهاب إلى بيت الشيخ السادات نقيب الأشراف الجديد وعهد إلى السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة بأن يكون وكيلاً عنه فى ادارة أملاكه وفى رعاية شئون أفراد أسرته واستأذن المحروقى محمد على فى قبول هذه الوكالة .

وقد عهد محمد على إلى أحد الضباط بحراسة عمر مكرم فى سفره إلى دمياط ، وتحدد يوم ١٢ من اغسطس ١٨٠٩ موعداً لرحيله من القاهرة ، وقام الزعيم بركوب دابته إلى ميناء بولاق النهرى واستقل سفينة أعدتها له الحكومة وأبحرت به ليلاً إلى دمياط " وكان الناس فى حزن شديد على فراقه .

وبدأت سنوات النفى وعاش ثلاث سنوات فى دمياط تحت المراقبة وملازمة الحراس له ثم نقل إلى طنطا فى أبريل ١٨١٢ وبقى بها سبع سنوات والتمس من محمد على الاذن له بالحج وزيارة البلاد المقدسة فأذن له الباشا بعد أن أطمأن إلى عدم خطورته، وفى عام ١٨١٩ عاد إلى القاهرة وكان عمره قد شارف على السبعين واستقبله الشعب فى ابتهاج عظيم وحفاوة بالغة .. غير أن الزعيم أعتكف فى داره حتى لايثير الشكوك حوله .. وأتخذ لنفسه مسكنا سحيقاً بمصر القديمة لكى يبعد عن القاهرة ويركن إلى العزلة ويعكف على العبادة والدرس .

ولما فرضت الضريبة على مساكن القاهرة سنة ١٨٢٢م بعد مساكن القرى والمدن لتموين الاسطول العثمانى المار بالاسكندرية فى طريقه إلى كريت ، ضج الناس وخرجوا إلى الطرقات متذمرين معلنين شكواهم مرددين اسم السيد عمر مكرم .. غير أن محمد على كان شديد الحرص على تنفيذ خططه .. فما أن ترامت إلى اسماعه أخبار القلق وترديد العامة إسم عمر مكرم حتى عاد فأمر

بنفـى الزعيم الخطـر إلى طنطا خـوفا من قيام ثـورة مهددة صاخبـة كتلك الثورات القديمة، وسـافر السيد عمر مكرم إلى منفاه الجديد وهو طنطا فى ١٥ أبريل عام ١٨٢٢ ولكن لـم يطل به المقام فقد توفـى فى نفس العام عن عمـر يناهـز السبعين وطويت صفحة من صفحات أحد رواد الكفاح الوطنى فى مصر .

الفصل السابع
عمر مكرم أمام محكمة التاريخ

هو السيد عمر مكرم بن حسين الاسيوطي (نسبة إلي أسيوط) لقب بالسيد لأنه من أسرة شريفة يصل نسبها بالامام الحسين بن علي بن أبي طالب (زوج السيدة فاطمة الزهراء) ... وكما كان لقب السيد سابقاً لإسمه كذلك كان لقب أفندى أوالأفندى تالياً له .. وكذلك صفة "النقيب" منذ توليه نقابة السادة الأشراف سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣-١٧٩٤) .

ولد في أسيوط بصعيد مصر وأغلب الظن أن مولده كان في عام ١١٦٨ هـ - ١٧٥٥ م وقد درس بالجامع الأزهر ست سنوات حيث برز دوره القيادى متجاوزاً المحيط المحلى ...

وأول محطة لكفاحه الوطني بدأت سنه ١٧٩٠ م (١٢٠٥هـ) عندما توسط بين أمراء المماليك في الوجه القبلي وشيخ البلد لادراكه أن الصراع بينهما كان يعود بالخسارة والخراب على الشعب المصرى .

أما المحطة التالية فقد كانت ذلك الدور الذي لعبه في ثورة العهد الأعظم سنه ١٧٩٥م (١٢٠٩هـ) عندما تفاقمت مظالم المماليك في إقليم الشرقية والتي كانت موطن شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوى ونجحت الثورة في رفع المظالم ومراعاة العدل والغاء الضرائب المستحدثة ... وكتب ذلك في شكل وثيقة كتبها بنفسه ووقع عليها قاضي القضاة وكل من مراد بك وابراهيم بك وختمها الوالي بخاتمه ضمانا لتنفيذها . ولما كان الإسلام هو أيدولوجية الأمة ، والفكر الفاعل في تكوينها النفسي وتحديد القيم التي تقدمها والمعايير التي تحتكم اليها ، فلقد كان علماؤه وشيوخه وحملة شريعته —ومنهم السيد عمر مكرم —هم قادة العامة والأمة .. في مواجهة مظالم الوالى والجند ، والمماليك .

وزاد من دور السيد عمر مكرم في هذه القيادة الشعبية ، وجعله أقرب من كثير من أقطابها إلي جمهور الأمة وأكثر من غيره تمثيلاً لمطامح هذا الجمهور .. أن

عمـر مكـرم

الـرجل كـان عـلي رأس نقـابـة الاشـراف الـوثيقـة الـصله واللـصيقـه عضـويـا ... بالتـنظيمات الصوفية ، تلك التي تضم في صفوفها العامه والجمـاهير .. فهو إلي الشعب اقرب وبه ألصق ولمطالبه أكثر تمثيلاً ، علي حـين كانت المصـالح الخاصه والمواقف العـارضه والتـوازنـات المتحـركه هـي التـي تحكم مـواقف عـدد قليل من الشيوخ والعلماء.(١)

وعند وقع الغـزو الفرنـسي والهزيمـة التي لحقت بـالمماليـك رفض السيـد عمر مكرم أن ينضم إلي الديـوان الذي كونه نـابليون .. رغم إنضـمام العديـد من شيوخ الأزهـر إلي هذا الـديوان . وفـضل الانسحـاب إلي يافـا فى أعقـاب فرار المـماليك وإنسحـاب العثمـانيين مما تـرتب عليه نهب داره واسـتيلاء الفرنـسيين علي أملاكه وتم فـصله من رئـاسـته لنقـابـة الأشـراف وحل محله أحـد الشيـوخ المتعـاونين مع نابليون وهو الشيخ خليل البكرى .

وقد تم تعيين خليل البكري في اغسطس ١٧٩٨ م ويقول الجبرتي :-

في اليـوم الذى تقلـد فيه الشيـخ خليل البكـرى نقابـة الأشراف أعلن في المـدينة بأن كل من له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب الجديد .

وكان خليل البكرى دائب السعي لدى الفـرنسيين لتعيينه في هذا المنصب . وقد أوضح للفرنسيـين أن نقابة الأشراف كانت دائما بيت البكريه وأنها إغتصبت منهم فقلده نابليون اياها واستولي خليل البكرى علي وقفها وقدر النقيب الجديد فضل كبـير لـنابليون ولـم يدخـر وسعاً فـى إرضائه وغـمره بـالهدايـا الثمينـة ، وقد ظل بعضها ردحاً طويلا مـن الزمـن حديث المجالـس في أوروبا ونعنى ببعض الهـدايا رستم المملوك الـشركسي الجميل الشكل ، وكان له من العمـر وقتذاك ثمانية عشر عـامـا وقـد اصـطحـبه معه بونـابـرت الي فـرنسـا وظل مـرافقـا له فـى غـداواته وروحـاتـه وانتصارته . وكـان يلقب "مملـوك الامبراطـور" وتمتع بمـركز ممـتاز فـي قـصـر التـويلـري " "Tuileries في بـاريـس وظل اسم رسـتم مقـرونـا بـاســم نابليــون (ويطلق عليـه الفرنسيـون روستان) " " Roustan وقد ولد في جورجيا

(١) محمد عمارة :- مسلمون ثوار دار الشروق (القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ص ٣٢٣ - ٣٢٧

سنة١٧٨٠ وتوفي ١٨٤٥ وتشتهر ولاية جورجيا بأن سكانها من اجمل سكان العالم شكلا (١)

كانت حياة عمر مكرم في يافا غير سعيدة من ناحية لانه كان بعيد عن وطنه ومن ناحية أخري أنه كان بعيدا عن أهله ، ومن ناحية ثالثة أن أمواله صودرت واراضيه انتزعت .. كما أن ابرهيم بك تعمد الابتعاد عنه في يافا ولم يكن حتي يفك ضائقته الماليه ، ومن ثم عاش في ضنك وعوز بشكل لامثيل له ، وكان أول لقاء بين نابليون وعمر مكرم في يافا حيث عاقبه بونابرت علي خروجه من مصر هو ورفاقه وعاد من يافا الي دمياط بناء علي أمر نابليون ولكن فرضت عليه الاقامة الجبريه لعدة شهور في دمياط وفي يوليو ١٧٩٩ م ، حضر السيد عمر افندي مكرم من دمياط الي القاهرة ... وقد حاول الجبرتي تعليل بقاء عمر مكرم في القاهرة بأنه كان محتجزا "بالكرانتيله" كاجراء صحي بسبب وباء الطاعون ، ولكن ملابسات الموقف تؤكد أن سبب تلك الإقامة الجبرية تعود لاسباب سياسية حيث كان عمر مكرم يتمتع بشعبية عريضة وعميقة في أوساط الجماهير.

وخشي بونابرت أن يكون وجود الزعيم في القاهرة مدعاة لقيام الشعب بثورة عارمة علي الحكم الفرنسي خاصة وأن بونابرت كان متغيبا عنها ... و علي ذلك لم تكن إقامة الزعيم عمر مكرم في دمياط إجراًء وقائياً صحيا ... بل كانت إقامتة أولاً وقبل كل شئ إجراءً وقائياً سياسياً ...

فأي عظمه أبلغ من ذلك ... جيش اوروبي مدجج بالسلاح يخشي زعيما شعبيا مجردا من كل سلاح إلا سلاح الإيمان باللّه وبالوطن .

ولقد كان لموقف خليل البكري نقيب الأشراف الذي اجله نابليون بدلا منه اكبر

(١) تتابعت هدايا خليل البكري الذي أقامه نابليون نقيبا للأشراف بدلا من عمر مكرم ... من خيل وهجن سريعه وأسلحه ذات قبضات محلاه بالذهب والجواهر الكريمة وشيلان كشميريه وأقمشه حريرية من صناعة الهند والصين ثم عطور وعود وصندل فضلا عن الجواري الحسان من الشركس والأحباش ، وتطورت العلاقات حتي ارتضي الشيخ خليل البكري ان تكون داره هي المكان المختار لبونابرت يدنسه بسهراته ومجونه وفسقه وفجوره ... بل لقد انتهي الأمر به أن وثقت ابنته زينب البكري صلاتها بالفرنسيين وعلي رأسهم بونابرت حتي أوغل المعاصرون لها والمؤرخون والباحثون في شرفها وعرضها بعيداً (ومن يقرأ الجبرتي في كتابه عجائب الأثار في التراجم والأحبار ط ٣ في حوادث ربيع أول ١٢١٦ هـ (١٢ يوليو - أغسطس سنه ١٨٠١ وكذلك حـ ٤ في ترجمة السيد خليل البكري سيجد الكثير من قصص زينب البكري مع الحملة الفرنسية) .

الأسباب التي أدت الي كراهية الشعب للبكري ونفاقه وخروجه عن القيم الدينيه والاخلاقيه ليبقى نقيب الاشراف والتي جاءت عكسيا لصالح عمر مكرم وارتفاع مكانته بين الشعب المصري .

والشعوب قلما تخطئ .. والشعب المصري مشهود له بالذكاء وبأن حكمه علي الأمور والشخصيات يكون في الغالب الاعم حكما صحيحا وسليماً ... والحالة النفسية التي كان يمر بها الشعب المصري وقتذاك جعلته يعقد المقارنات بين سلوك النقيبين السابق واللاحق ... فاذا صفحة عمر مكرم تبدو للجماهير ناصعة البياض.. واذا بصفحة الثاني لا تنضح إلا بالتعاون الوثيق مع الفرنسيين .. وزاد الطين بلة أن تصرفات وسلوكيات نقيب الأشراف خليل البكرى كانت تمس الشرف وتلطخ أسرة البكرى العريقة بالعار .. وكل ذلك أكد إنحياز الجماهير للسيد عمر مكرم حتى إذا لاحت الفرصة أظهرت الجماهير ذلك التقدير والإعتزاز لعمر مكرم وفجرت هذا الغيظ المكبوت ضد خليل البكرى .. وبالتالى ضد الحملة الفرنسية وقد ظهر ذلك واضحاً خلال ثورة القاهرة الثانية حيث إقتحم الثوار منزل الشيخ خليل وساقوه حافى القدمين عارى الرأس فى شوارع القاهرة والجماهير تحيط به وتسبه بأقذر الشتائم .. ولم ينقذه من نقمة الجماهير عليه إلا السيد أحمد محرم وهو من كبار تجار القاهرة إذ أخذه وآواه فى منزله .

وحاول كليبر أن يستميل إليه العلماء والمشايخ فأقام لهم وليمة احتفالاً بانتصاره فى ثورة القاهرة الثانية وأسبغ على الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف الكثير من مظاهر العطف والتقدير تعويضاً له عن الاهانات والخسائر التى لحقت به من غضب الشعب عليه ، فخلع عليه خلعه جديدة وأمر بإعطائه منزل عثمان الكاشف بدلاً من منزله الذى عبث به الثوار .. ولم يكن ذلك إلا نكاية فى عمر مكرم .. ودعا كليبر المشاريخ والعلماء إلى الاجتماع به فى ٣ مايو سنة ١٨٠٠م .. وكان هذا الإجتماع هو أحلك إجتماع شهدوه .. حيث يقول المؤرخ عبد العزيز الشناوى :" بال بعضهم على ملابسه فى الإجتماع وتمنى كل منهم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً فى هذا اليوم ".

ونترك الجبرتى يصف حالتهم النفسية البهيجة وهم فى طريقهم إلى هذا الإجتماع فقد بكروا بالذهاب إلى بيت ساير عسكر (يقصد بيت كليبر القائد العام بعد نابليون) وطمع كل واحد منهم بتقلد المناصب والحصول على العطايا ولكنهم قوبلوا مقابلة جافة إنطوت على معانى الإزدراء والإستهانة لهم حيث أجلسوا فى الردهة الخارجية ولم يخاطبهم أحد ولم يؤذن لهم بالدخول وتركوا على هذا الوضع المهين فترة طويلة ثم فتح باب القاعة وطلب منهم الدخول ، والجلوس ودخل كليبر فى فوج من كبار الفرنسيين وأعيان النصارى ووضع لكليبر مقعد فى وسط المجلس وتكلم طويلاً والمترجم يعُرب كلامه أو شتائمه فقد رمى المشايخ بالنفاق وضعف الخلق وإهتزاز الشخصية ونعى عليهم مسلكهم إبان الثورة .. وقرر أنه قد اتيحت لهم الفرص بسبب الحملة حيث أصبحت كلمتهم مسموعة وشفاعتهم مقبولة وأنه أعطاهم الكثير من المنح وأنشأ لهم ديواناً وأعلنها صراحة أن ضررهم أكثر من نفعهم .

حيث قال :

" إذا حضر خصومنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا .. وإذا ذهبوا رجعتم الينا منذرين .. فكان جزاءكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسب حريمكم وأولادكم " .

وقد حاول بعض المشايخ الدفاع عن موقفهم بأنهم فوجئوا بقيام الثورة ولم يكن فى استطاعتهم إخمادها ، ودللوا على صدق كلامهم بأنهم تعرضوا للضرب والإهانة وإلقاء عمائمهم على الأرض عندما نصحوا الشعب بالسكينة المهم أن كليبر فرض غرامة كبيرة على الكثير ممن شاركوا فى الثورة وأمر بأن تنهب دار عمر مكرم .

ولاشك أن المؤرخ يقف إجلالاً وإعجاباً بالشيخ محمد أبو الأنوار السادات وموقفه النضإلى والبطولى وإصراره على التشبث بأرض مصر وعدم الخروج منها أسوة بالسيد عمر مكرم .. وكان السادات من زعماء ثورة القاهرة الثانية وبقى بجانب الجماهير فى العاصمة ولقى من الاضطهاد بعد اعتقاله والتعذيب بعد سجنه مالا تسعه سطور الكثير من المجلدات .

ويقارن البعض بين موقفى محمد كريم وعمر مكرم في أن الأول صمم علي أن يستمر في مقاومة الفرنسيين من أرض مصر .. بينما عمر مكرم آثر السلامه وفر هارباً إلى يافا..

والحقيقه أن محمد كريم كان أكثر شجاعه .. ولكن عمر مكرم كان أكثر واقعيه وعند عودته إلي مصر بعد دخول نابليون يافا وطلب منه الرجوع فإن عمر مكرم مكث في دمياط ثمانيه اشهر ثم عاد بعدها الي القاهرة وظل مصراً علي عدم التعاون مع الفرنسيين و إعتزل كل عمل ... وظل يرقب الاحداث حتى حانت الفرصه للمشاركة فى المقاومة فى ثورة القاهرة الثانية ضد كليبر .

وإضطر للانسحاب بعد فشل الثورة ... وكأن ذلك هو قدره .. يتوارى ثم يعود ... يتقهقر حتي يستعيد أنفاسه ودام إنسحاب حتي جلاء الحمله الفرنسية علي مصر فغادر مرة ثانيه إلي القاهرة في ٤ ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ / ١٥ يوليو ١٨٠١ م واستعاد ما سُلب منه وعادت اليه مره اخرى نقابة الأشراف ورغم خروجه وعودته فإن مكانته لدى الجماهير لم تهتز وظل التجار والحرفيون والغالبيه من طلاب العلم بالازهر الشريف يثقون في قيادته .

حقيقة أن عمر مكرم لم يكن رجل حرب

وحقيقة أخرى أنه لم تكن لديه الوسائل أو الإمكانيات كى يمنع عن الشعب انتقام الفرنسيين .

وحقيقة ثالثة وهى أن الأوضاع السياسية فى مصر كانت واحدة عند هجرته من مصر أول مرة وعند إرغامه للمرة الثانية .

ولاشك أن خروج عمر مكرم للمرة الثانية كان خوفه من إنتقام الفرنسيين منه.

ولكن نحن نقول هنا أن واجب الزعيم أن يقف إلى جانب الشعب فى وقت المحن والشدائد وأن يشاركه آلامه وأفراحه .. وهو مالم يفعله عمر مكرم عقب ثورة القاهرة الثانية .. وهذا هو المأخذ الذى نسجله على عمر مكرم إبان الحملة الفرنسية .

ومع ذلك يمكن القول أن عمر مكرم كان يجد فى الإبقاء على حياته سبباً

لمواصلة النضـال عندما تتحسن الظروف .. وأن ضياع حياته لـم يفيد الشعب كما لو كان على قيد الحياة .

ومع ذلك فإن هـذا المـوقف لاينف صـدقه الثـورى وأن حيـاته كانـت مليئـة بالشجاعة والنزاهة زاخرة بالنضال خاصة الدور الذى لعبه فيما بعد .

ولـم تطل هجـرة عمـر مكـرم خـارج مصـر ، فقـد تطـورت الأحـداث فـى مصـر تطوراً عجل بنهايـة الاحتلال الفرنسي ، وكـان أول هذه الأحداث مصـرع كليبر ثم ولايـة مينـو والذى فـى عهده تم جلاء الحـملة الفـرنسيـة عن مصـر فى ١٨ أكتـوبر ١٨٠١ .

وقد عـاد عمـر مكـرم مع الجيـش العثمـانى الـذى زحف علـى مصـر من الـشام وعـاد معه أيضـاً السـيد أحمـد المحروقـى والأمير ابـراهيم بك الكبير وغيره من الأمـراء والمماليك ، ودخل عـمر مكرم القـاهرة فى ١٥يـوليو سنـة ١٨٠١م وقد بعث يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم فى ٤ أغسطس سنة ١٨٠١ فى استدعاء الشيخ خليل البكرى وابنته زينـب وذهبت قـوة إلـى دار أمهـا فـى الجـودريـة بعـد المغـرب وأحضروها (١) وعقـدوا لها محاكمة فـى شبه مجلس عسكرى حيث سـألوها عما كانت تفعله مع الفرنسيين .. فقالت :

" إنى تبت من ذلك ..

فوجه المحقق سؤالاً إلى والدها :

ما تقول أنت ؟.. فقال .. أقول إنى برئ منها

فأمر المجلس بكسر رقبتها أى قتلها

أما الشيخ خليل البكرى فقد عزل من نقابة الأشراف ، والتهم التى وجهت اليه كانت على النحو التالى :

(١) الجودريه اسم طائفة من العسكر كان عددهم أربعمائة قطنوا هذا الشارع أيام الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى ثم علم هذا الخليفة أن جماعة من اليهود يجتمعون فيه فى أوقات فراغهم ويتسامرون فيه بمالا يليق فما كان منه إلا أن ذهب ليلاً وأغلق أبواب الشارع والحارة المتفرعة منه وأعمل فيها النار ومنذ ذلك الوقت لايسكن ولايبيت فيها يهودى أبداً ويقع شارع الجودريه بالقرب من أول شارع المؤيد وينتهى إلى أول شارع الخطاب ، أما حارة الجودريه منه وتمتد إلى جامع بيبرس وإلى درب سعادة فى شارع الأزهر . انظر على مبارك الخطط التوفيقية ج٣ ص.ص٣٩- ٤٤ .

عمـر مكـرم

أولاً : وطد علاقته مع الفرنسيين .

ثـانيـاً: سمـح لأبنـته أن تتبـرج مع الفـرنـسيـين وأن تخـرج عن طـور الآداب الإسـلامية والعادات المصرية .

ثالثاً: أنه أسـاء بتصرفاته وبأسلوب معيشته فى الحياة إلى سمعة بيت البكرى العريق .

وصدر قرار بتعيين عمر مكرم نقيباً للأشراف .

وأصدر محمد خسرو باشا الوالى العثمانى بعزل خليل البكرى من مشيخة السجادة البكرية على أساس أنه لايصلح لسجادة الصديق (إشارة إلى أن البكرية ينتسبون إلى أبى بكر الصديق) .

ونخرج من هذا العرض التاريخى بالنتائج التالية :

١- أن عمر مكرم كان إبان الحكم العثمانى المملوكى شخصية غير طامعة فى جاه أو سلطان متقشفاً لايسعى وراء الرفاهية ، ونذر نفسه لحل مشاكل الجماهير وتوعية الجماهير بمعنى القيم التربوية الإسلامية .

٢- خلال الحكم الفرنسى كان يتميز بالإيجابية القيادية الثورية حيناً والنفى الإختيارى حيناً آخر والاعتكاف السياسى تارة ثالثة ، وهو فى جميع هذه المراحل لم يدنس زعامته بالتعاون مع الفرنسيين فى أى صورة من صور التعاون وأشكاله وألوانه .

٣- لم يخضع سواء فى العهد العثمانى المملوكى أو الحملة الفرنسية لأى مغريات أو تهديد .. وكان مسعاه العمل من أجل مصر .

شعرت السلطات العثمانية بخطورة عمر مكرم .. حيث يقول المؤرخ الفرنسى اكيل دى نولابل " Akil de Vauil Abelle" أن السيد عمر مكرم برز فى الصفوف الأولى من المناضلين الذين رأهم الشعب يدافعون عن حقوقه ، واعتقد خورشيد باشا أن فى مقدوره إخماد الحركة الشعبية إذا إعتقل هذه الشخصية القيادية الثورية ثم تخلص منها ولكنه فشل فى ذلك .

ويكفى أن نذكر هنا ملخص لتلك المقابلة بين السيد عمر مكرم وبين عمر بك الأرنؤودى وهو من خاصة مستشارى خورشيد باشا الوإلى وقد دارت تلك المقابلة

فـى ٢٥ مايـو ١٨٠٥م ،وتمت المقـابلة فـى منزل حسن باشـا من كبـار الأتراك ودار الحديث الآتى :

عمر بك الألبانى :

كيـف تعزلـون من ولاه السلطـان عليكم ؟ وقـد قال اللّه تعـإلى " يـا أيها الـذين أمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " .

السيد عمر مكرم :

" أولو الأمـر هم العلمـاء وحملة الشريعـة والسلطـان العادل ، وهـذا رجل ظالم وجرت العـادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلـون الولاة وهذا شىء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه " .

عمر بك الالبانى : -

وكيف تحاصروننا وتمنعون عنا الماء والاكل وتقاتلوننا ؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك " .

السيد عمر مكرم :-

نعم ،قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة

عمر بك الألبانى : -

أن القاضى هذا كافر

السيد عمر مكرم : -

إذا كان قاضيـكم كافرا فكيف بكم ؟ وحشاه اللّه من ذلك ، أنه رجل شرعى لا يميل عن الحق .

وإنفض المجلس ، ولم يتحول عمر بك الألفى عن الخلاف والعناد وصمم عمر مكرم على ان اختيار محمد على لحكم مصر هـو القضية المحورية التى يجب أن يؤيدها ويساندها ويسعى لها .

وكان حب عمر مكرم للاسـلام كبير وولائه للسلطان العثمانى خليفة المسلمين جزء من تكوينـة العاطفـى والوجدانـى والدينـى .. وهو من هـذه الناحيـة يمكن أن يشبه بالـزعيم مصطفى كـامل حين التصق بتركيـا فى مرحلة من مـراحل كفاحه الوطنى المجيد ولكن عمر مكرم كان ضحية تمثيلية بارعة قام بهـا محمد على وصولا إلى

الحكم إلا أن الرجل كان حسـن النية وكان يريد مصلحة الشعب . وكان عمر مكرم بلا شك نموذجاً بشرياً فريداً فى الوطنية يبحث عن مثالية دون أن يدرك شيئاً عن أطماع النفس البشرية وفساد السلطة لكثير من أهلها .

رأى عمر مكرم أن الوسيله المثلى لإنتشال البلاد من هذه الفوضى ولتخليص الشعب من آلامه إنما تكون بالمناداة بمحمد على واليا على مصر إنقاذا لها من العنف والارهاق والمظالم .

ولأكثر من شهر في ورود المرسوم السلطاني بالمصادقه علي قرار زعماء الشعب في ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨ يونيو ١٨٠٥ م كان السيد عمر مكرم هو السلطة الثورية الفعليه في البلاد والذى تتقدم فاعليته على محمد على باشا .

ومارس عمر مكرم دوره الثورى فى صورة حاكم فعلى لمصر حيث :-

١ - أمر باستمرار حصارالقلعه وبها الوالى العثمانى حتى يتنازل عن الحكم.

٢ - أمر بحمل السلاح من جانب الشعب لحراسة الدور والمتاجر منعاً لأى فوضي أو تخريب.

٣ - كون فرقاً شعبيه مسلحه للتصدى للجنود فى حالة قيامهم بأى سلب أو نهب.

وكان المحتسب يرسل المنادى ليعلن على الملاء مرسوم القيادة يقول :-

"حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم واسلحتهم ويحترسوا في أماكنهم ، وإذا تعرض لهم عسكرى بأذيه قابلوه بمثلها وإلا فلا يتعرضوا له" .

وبعد صدور المرسوم السلطاني بتولي محمد علي ظل عمر مكرم ركناً من أركان جهاز الدولة استناداً الي زعامته الشعبيه .

ولكن القيادة الشعبيه التي ضمت كبار العلماء وشيوخ الأزهر مع السيد عمر مكرم قد أصاب جدار وحدتها شرخ كبير بعد يومين اثنين من ورود المرسوم السلطاني بتولي محمد علي شئون مصر . ذلك أن أغلب المتعممين قد اعتبروا أن مهمة القيادة قد انتهت وأن علي الشعب أن يلقي سلاحه، تاركاً الأمر كله لمحمد علي وحده . ورأت الأغلبيه من كبار الشيوخ ذلك لينصرفوا الي مصالحهم

الخـاصه ورفض عمـر مكرم مـوقف المشـايخ وعلمـاء الديـن ليس جبـاً في السلطه وإنما إحساساً بالمسئولية ورعـاية لمصالح الـشعب ومراقبه لحسـن سير الحاكم .. ومن هنـا كـانت بـدايه رحلـة المعـانـاه ... وبئـر الحـرمـان من أرض الـوطـن والنفـى المتكرر له خوفاً من شخصيته وسلطانه على الجماهير .

وما كان فـى مقدور عمـر مكرم أن يستشف شيئاً من خبـايا ذلك الـرجل الذى أوتى نصيباً موفورا من الخبث والخداع والالتواء .

عـاش عمـر مكـرم مـخلصـاً لمبـادئه مـدافعـاً عن قيـمه غيـوراً علـى وطنه ضـد الظالمين والإستبداد ...

تحـمل النفـــى ... والإغتـراب عـن أهله وكـان السـبب جـشع زمـلائه وحقـد أصدقائه ..

سـيظل التـاريخ يحمـل تقديـرا عميقـاً لعمـر مكرم والـدور الذى أداه فـى تاريخ الكفاح الوطنى ... وكان بحق أحد الرواد العظام فى تاريخ مصر الحديث من أجل الحرية والدفاع عن حق الشعب فى الديمقراطية .

وهكذا يتضح لنا أن : -

السيد عمر مكرم زعيم شعبى ، التصق بالشعب وبث فيه روح العزة والكرامة ، واستمد من الـشعب قوته ومكانته اللتين سما إليهـما ، وكان الشعب يفزع اليه كلما اشتدت عليه مظالم الـشعب بعد اجلاء الفـرنسيين لـفترة من أحلك الفـترات التى مـر بهـا فى تـاريخه الحـافل حيث سـادت البـلاد فوضـى سيـاسيـة عنيـفة لـم يرى الشعب لها من قبل مثيلاً .

تصـارع علـى الحـكم فيهـا العثمـانيـون والممـاليـك ، وتصـارع علـى النفـوذ فيهـا الانجليز والفـرنسيون ، وكـان الشعب الكادح هـو ضحية هذا التصارع الرهيب ... اضطـرب الأمن وأنقـطعت وسـائل الاتصـال بين أجـزاء البـلاد وتـدهـورت الحيـاة الاقتصـادية وأمتلأت مصـر بـأخلاط شتـى من الجنود لـم تربطهم بـالشعب من ود أو تعاطف .

كـان السيد عـمر مكرم يتـدخل لدى السلطـات الحاكمة لـوقف هذه الأثام ولكن كان زمـام الموقف قد خرج من يد الحكام الذين عجزوا عن تطويع الجنود . وعاش

عمـر مكـرم

المصريون عهداً قاتماً مظلماً كثيف الإظلام ولما اشتدت الكروب بالشعب وجاوز الظالمون المدى قاد السيد عمر مكرم شعبية هادرة فى وجه والي عثمانى هو أحمد خورشيد باشا أسرف اسرافاً بعيداً فى ظلم الشعب قاد الثورة ضده وأستطاع فى مايو ١٨٠٥ وبصدقه الثورى أن يقود الشعب ليفرض ارادته ويعزل الوالى الظالم ويولى محمد على حكم مصر وفق مبادىء معينة وضعها السيد عمر مكرم وارتضاها محمد على دستوراً لحكمه .

وكان أهمها إقامة العدل والكف عن المظالم وعدم استغلال الشعب والرجوع إلى الزعماء ورضخ السلطان العثمانى فى الأستانة لسياسة الأمر الواقع ، فأصدر مرسوماً أقر فيه الوضع الجديد " حيث رضى بذلك العلماء والرعية " كما جاء فى منطوق المرسوم ، . وزادت مكانة عمر مكرم في نظر الشعب وتبوأ مكاناً علياً لم يبلغه زعيم آخر من قبل وغدا زعيم زعماء مصر فى مطلع القرن الـ ١٩ .

مات عمر مكرم سنة ١٨٢٢ في طنطا .. وهو حبيس قفص المنفي مات موته الأسد الذي كان زئيره يرعب المماليك والعثمانيين، مات بسبب حقد الأصدقاء وفرح الأعداء بالتخلص منه ... ولكن هيهات أن يطوى الموت صفحه كهذه .. زاخرة بالاحلام النبيلة مليئة بالمساعدة الحميدة ، تفيض ابداً علي الذين يفقهون التاريخ بالعبر والعظات .

والأن إذا أردت أن تزور قبر عمر مكرم ، لابد لك أن تبحث عنه فى مدفن متواضع بين قبرين من مقابر الأمراء في قرافة (مدافن) المجاورين لا يحمل اسماً ولا تاريخاً يقوم عليه بناء بسيط من حجر الجير، لا يعلم إلا قليل أن من تحته زعيم وطني قد كان ملء مصر وحوادثها منذ أكثر من مائه عام .

ونحن ننتهز هذه الفرصة لنطالب أن تُبني في مصر مقبره للعظماء، رواد الحركة الوطنية وعلي كل قبر شاهد للدور الوطني الذي قام به، ولا يكفي أن يكون لعمر مكرم جامع شهير في ميدان التحرير ... بل لابد من مقبرة لعظماء مصر أسوة بكل الدول المتمدنة والمتحضرة وإعترافاً بدورهم الوطني من أجل حرية هذا الشعب والحفاظ على كرامته وإستقلاله .

الخاتـمة

يحتل السيد عمر مكرم مكاناً مرموقاً بين رواد الحركة الوطنية فى مصر ... وهو زعيم سياسى ينتمى إلى الروضة النبوية الشريفة تعلم فى الأزهر وقضى فى رحابه سنين عديدة يتلقى العلم عن أشياخ عصره ... ولما أتم دراسته فى هذه الجامعة العتيدة على النحو المألوف فى زمنه إنصرف إلى الحياه العامة يسهم فيها بنصيب موفور وتقلد رئاسة نقابة الاشراف .

ولمع إسمه حين هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر ... حيث رفض أن يكون من أعوانها رغم كل وسائل الاغراء التى إستخدمت معه .

وهو طراز فريد بين الزعامات المصرية فى التاريخ الحديث ... فقد كان مسلما فى عقيدته أزهرياً فى ثقافته ... أصيلاً فى عروبته ... عثمانياً فى نزعته ولا تثريب أو لوم عليه فى ذلك فالمجتمع الذى عاش فية كان مجتمعاً دينياً ، لأن الشعب المصرى كان لا ينظر إلى سلطان الدولة العثمانية على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر أو مستغل ، بل كان ينظر اليه على أنه سلطان الاسلام أو سلطان المسلمين وأن الدوله العثمانية هى الدوله الاسلامية الكبرى التى تظل المسلمين بظلها الظليل، وقد نجح العثمانيون فى فرض استعمار مقنع على مصر وسائر أجزاء العالم العربى باسم الدين ، والدين منه براء .

والسيد عمر مكرم زعيم شعبى ، التصق بالشعب وبث فيه روح العزة والكرامة وأستمد من الشعب قوته ومكانته اللتين سما إليهما ، وكان الشعب يفزع إليه كلما اشتدت عليه مظالم الحكام يطلب تدخله لديهم لرفع المظالم عن كاهله .

لقد تعرض الشعب بعد اجلاء الفرنسيين لفترة من أحلك الفترات التى مر بها فى تاريخه الحافل ، سادت البلاد فوضى سياسية عنيفة لم ير الشعب لها مثيلاً من قبل ، تصارع على الحكم فيها العثمانيون والمماليك ، وتصارع على النفوذ فيها الانجليز والفرنسيون وكان الشعب الكادح هو الضحية فى هذا التصارع الرهيب ... اضطرب الأمن وانقطعت وسائل الاتصال بين أجزاء البلاد ، وتدهورت الحياة

الاقتصادية وعـزت الأقوات وأمتلأت مصـر بأخلاط شتـى من الجنود لـم تربطهم بـالشعـب أى روابط ... كـانـوا ينهبـون المتـاجـر ويهـاجمـون المنـازل ويعتـدون علـى الأعـراض ويتخطفـون العمـائـم من رؤوس المـارة ، وعمـد المصـريـون إلـى ربـط عمائمهـم فى رءوسهم ومضى العسكريون العثمـانيون يمضون فـى عمليات السلب والنهب والقتل وينشرون الرعب فى الريف والحضر على السواء .

وتدخل السيـد عمر مكرم لـدى السلطات الحـاكمة لوقف هـذه الآثام ولكن كان زمام الموقف قد خرج من بين يـد الحكام الذين عجزوا عن تطويع الجنود . وعاش المصريون عهداً قاتماً مظلماً كثيف الإظلام .

ولمـا اشتدت الكروب بالشعب وجـاوز الظالمون المدى قاد السيد عمر مكرم ثورة شعبيه هادره فى وجه والى عثمانى هـو أحمد خورشيد باشا أسرف اسرافاً بعيداً فـى ظلم الشعـب . ونجحت الثورة وتم إنقلاب مـايو ١٨٠٥ م وفيه استطاع الشعب المصـرى بصـدقه الثورى أن يفـرض ارادته وأن يعـزل الـوالـى العثمـانـى أحمـد خـورشيد باشـا ويولى محـمد على حكم مـصر وفق مبادىء وشـروط معينه وضعها السيد عمر مكرم وارتضاها محمد على دستوراً لحكمه وكان أهم هذه الشروط :

إقامة العدل ..

والكف عن المظالم ..

عدم استغلال الشعب ..

الـرجـوع إلـى الـزعمـاء عنـد فـرض أى ضـريبـة واسـتشـارتهم فـى كل مـا يمس مصالح الناس .

ورضخ السلطـان العثمانـى فى الأستـانة لسيـاسـة الأمر الـواقع ... حيث أنه لم يسـبق أن يتولـى شعب من شعـوب الإمبراطـورية العثمانيـة تنصيب حاكم له على غيررغبـة السلطـان ... كما أن السلطان يعتبر ان قيـامه بتعيين الـوالى من أخص شئون الحـكم وان قيـام الشعب بـذلك يعـد عـدوانـاً صـارخـاً علـى اختصـاصـاته وسلطانه .

أصـدر السلطان العثمانى مـرسوماً أقر فيه الوضع الجديـد فى محاولة خادعة منه لتهدئة العلماء والرعية – كما جاء فى منظومة الفرمان .

وزادت مكانة عمر مكرم فى نظر الشعب وتبوأ مكاناً عالياً لم يبلغه زعيم آخر من قبل وأجمع كل المراقبين للمشهد السياسى فى مصر أن عمر مكرم أصبح زعيم زعماء مصر فى مطلع القرن الـ ١٩ .

ويبرز نجم السيد عمر مكرم بروزاً واضحاً قوياً عندما تعرضت مصر فى سنة ١٨٠٧ م لحملة بريطانيا التي كانت تجمع خليطاً غريباً من الجنود الانجليز وكانت تضم هذه الحملة إلى جانب جنود الجنرال الانجليزى " فريزر " مجموعة من الجنود المرتزقة الايطاليين إلى جانب مجموعة من المهاجرين الفرنسيين الذين وقفوا موقفاً عدائياً من الثورة الفرنسية ... وقام عمر مكرم باستنفار الشعب حيث أمر بايقاف الدراسة فى الازهر حتى ينصرف طلابه ومجاوروه إلى صد العدوان ... وجمع المتطوعين ، وجهزهم بكل المتاح من العصى والنبابيت والرماح والخناجر والسيوف وآلات الحرب البدائية وقبل أن يسافر إلى رشيد نجح فى إقامة التحصينات العسكرية حول القاهرة ... وكان الفضل للمقاومة الشعبية ولتوجيهات عمر مكرم فى إفشال تلك الحملة البريطانية على مصر .. حيث عادت فلولها تجر اذيال الخيبة والفشل إلى جزيرة صقلية التى اتخذتها انجلترا قاعدة عسكرية للعمليات الحربية فى حوض البحر المتوسط ضد نابليون .

وفى بداية حكم محمد على لمصر إعتبر الزعيم عمر مكرم ممثلاً للرأى العام المصرى وجعل منه الذراع الأيمن له ، يرجع اليه فى شئون الحكم ويستشيره فى المشكلات التى تواجهه ... وبالذات الماليه منها والتى عانى منها محمد على كثيراً فى بدايه حكمه .. واستطاع محمد على بفضل تدخل عمر مكرم ووقوفه إلى جانبه أن يجتاز بنجاح الأزمات والصعوبات التى واجهته خلال السنوات الأولى من حكمة .

ولكن لم يظل أمد التعاون الوثيق بينهما .. خاصة وأن محمد على كان يسعى إلى الانفراد بالحكم المطلق دون رقيب عليه أو شريك معه يستشيره .. كما أن محمد على ضاق ذرعاً بتدخلات عمر مكرم لصالح الشعب المصرى ورفع أى ظلم يقع عليه من أعوان محمد على .

وبعد أن وطد محمد على أركان حكمه بدأ يكشف عن نزعته الاستبداديه وعن رغبته فى اقصاء الزعامة الشعبية صاحبة الفضل عليه فى الوصول إلى منصبه ... فاذا به يتنكر لها ويشتط فى فرض الضرائب الجزافية ، ويهدد أفراد الشعب بقطع الرقاب إذا فكروا فى الثورة عليه .. ويدرك الزعيم أن هذا الوالى يعمل على شاكلة الولاة العثمانيين ، فوقع مالم يكن منه بد وهو المعارضة ثم الصدام .

وقد وقف عمر مكرم فى معارضته لمحمد على موقفاً بطولياً فريداً لم يقفه غيره من زعماء مصر فى ذلك الوقت ، إذ ضعفوا ووهنوا واستكانوا لمحمد على خوفاً وطمعاً ، خوفاً من بطشه وطمعاً فى مزيد من المناصب والأموال ، نجح محمد على فى التلويح لهم بها كى ينقلبوا على كبيرهم وزعيمهم عمر مكرم .

وأفلح محمد على فى خطته ووقف عمر مكرم بمفرده دون سائر الزعماء صامدا فى أحلك أوقات المحنه فى وجه محمد على ، لم يرهبه جبروت هذا الحاكم ، ولم يبهره بريق المال ولا أبهة المناصب ، بل ظل وفياً لمبادئه مناضلاً عن حقوق الشعب.

لقد لقى محمد على – فيما لقى فى مستهل حكمه – نوعين من المعارضة ...

معارضة سافرة صريحة جريئة حمل لوائها عمر مكرم الذى نفى عليه أسلوبه الباغى فى حكم الشعب واسرافه فى فرض الضرائب وعدم الرجوع إلى زعماء الشعب فى مشكلات الحكم ... وأتهمه باختلاس الأموال العامة وبالتزوير فى كشوف ايرادات ومصروفات الحكومة المصرية التى كان يبعث بها محمد على إلى الباب العالى فى الآستانه .

ثم كان هناك النوع الثانى من المعارضة .. وهى المعارضة الخفية المستترة، وقد تمثلت فى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى المشهور ، وما كان يقوم بتسطيره فى كراساته من تصرفات محمد على ، وما سجله عليه من أنواع الظلم إلى جانب ما كان المؤرخ المصرى يهمس به فى مجالسه الخاصة من نقد لاذع ، ومعارضة لأساليبه التعسفية :

وكان الشيخ الجبرتى شديد التحمس للنظرية السياسية الاسلامية وهى "أن عدل الحاكم شرط أساسى لطاعة المحكومين له" .

وقد ضاق محمد على ذرعا بهذه المعارضة بنوعيها سواء السلبية من جانب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، والايجابية من جانب السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وعزم محمد على أن يقضى على كلتا المعارضة ... السافرة والمستترة .

وبدأ بالمعارضة السافرة لأنها كانت أشد خطراً عليه وهو فى مستهل حكمه، فوقع الصدام بين عمر مكرم وبين محمد على .. وانتهى هذا الصدام بعزل عمر مكرم من نقابة الاشراف وايقافه عن الحياة العامة بنفيه من القاهرة وتشويه سمعته العطرة بالصاق تهم كاذبة به أُبلغت إلى الباب العالى فى الأستانة .

أما المعارضة الخفية فقد تكفل باسكاتها محمد بك الدفتردار صهر محمد على إذ سولت له نفسه أن ينتقم من الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى مقتل أبنه الخليل وكان الجبرتى قد أصبح طاعنا فى السن حيث أشرف على السبعين ... وقد روع الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بفجيعة موت فلذة كبده حيث أصيب بالعمى وتعذر عليه مراقبة الحوادث وتسجيلها وتوقف عن الكتابة إلى أن جاز إلى ربه وصعدت روحه إلى بارئها ولحسن حظه أن موته جاء بعد وفاة ابنه بفترة قصيرة لا تتعدى العام .

لم تكن حياة عمر مكرم ناعمة هادئة ، فقد تعرض لشتى صنوف الايذاء .. النفى الاختيارى تارة والنفى الاجبارى تارة أخرى ، وتم مصادرة ممتلكاته ونهبت أمواله وحددت إقامته ، ونزعت منه نقابة الأشراف ثلاث مرات .

ولو كان عمر مكرم من الزعماء الذين يداهنون الحكام لجرى عليه الرزق وغدا من كل مكان ولكنه توفر فى إخلاص على الدفاع عن حقوق الشعب الكادح وحمل جذوة النضال ووقف فى وجه الغزاه الفرنسيين والبريطانيين وفى وجه الحاكم محمد على وقفة صارمة خالصة لله وللوطن ، ولم يكن كفاحه السياسى برياء ووراء مغانم يظفر بها من جاه أو منصب أو مال ...

فقد كان طوال حياته عزوفاً عن المال زاهدا فى أى جاه أو سلطان ... منصرفاً عن كل منصب ... ولا شك أن الفترة التى عاشها فى تاريخ مصر كانت من أهم فترات التاريخ المصرى التى حفلت بالاحداث الجسام والتغيرات الجذرية التى كان لها أثرها البعيد فى حياة مصر طيلة القرن الـ ١٩ .

عمـر مكـرم

لقد شهد عمر مكرم نهاية النظام العثمانى المملوكى وقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر ثم عاصر الانقلابات السياسية عقب جلاء الفرنسيين عن مصر إلى أن تم تنصيب محمد على والياً على مصر .

لقد ذهب عمر مكرم فى تاريخ مصر كلها بطلاً وزعيماً شعبياً سجل فى تاريخ وطنه صفحات ستظل باهرة الضياء عبر القرون والدهور ... وبحق كان هو صوت الحرية ... وأول رائد من وراء الممارسة الديمقراطية فى تاريخ الشعب المصرى .

المصادر والمراجع

- سيمونا جاناسى آجر
نحو مجتمع جديد ترجمة : فاطمة بهجت القاهرة ١٩٧٩
- سلامة موسى
حرية الفكر وأبطالها فى التاريخ - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٢ - حسين مؤنس
مصر ورسالتها دار المعارف بمصر - سلسلة اخترنا لله رقم ١٧
- محمود الشرقاوى
الجبرتى وكفاح الشعب - كتاب الهلال العدد ١٨٤ ربيع الأول ١٣٨٦- يوليو ١٩٦٦م
- عبد الرحمن الجبرتى
عجائب الأثار فى التراجم والأخبار حـ٣
- محمود متولى
ثورات الشعب المصرى (فى التاريخ الحديث والمعاصر) مكتبة المعارف الحديثة - الاسكندرية ط١ ١٩٨١
- عبد الرحمن الرافعى
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر جـ٢القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ط ٣ ١٣٧٨ - ١٩٥٨ م
- عبد العزيز محمد الشناوى
عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة يوليو ١٩٦٧
- محمد فريد أبو حديد
السيد عمر مكرم
- محمد فؤاد شكرى
الحملة الفرنسية وظهور محمد على - مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
- أعلام النهضة الحديثة
الحلقة الأولى (مسئلة من مجلة الكتاب) دار الحمراء للطباعة والنشر ط١ بيروت ١٩٩٠
- حمادة محمود أحمد اسماعيل
صناعة تاريخ مصر الحديث (دراسة فى فكر عبد الرحمن الرافعى) مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر (سلسلة كتاب مصر النهضة) الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٧

عمـر مكـرم

- عبد العزيز محمد الشناوى - جلال يحيى
وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر (المكتبة التاريخية) دار المعارف - القاهرة ١٩٦٩
- محمود متولى
محاضرت فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر المركز المصرى للأبحاث والدراسات - القاهرة ٢٠٠٦ م
- محمد عبد الحميد الحناوى
دراسة لوثائق الحملة الفرنسية بدار الوثائق القومية بالقاهرة أسيوط - ٢٠٠٢م.
- محمود محمد شعبان
لقاء عند الفجر مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠
- أحمد حسين
موسوعة تاريخ مصر جـ٣ دار الشعب - القاهرة ١٩٩٠
- مصطفى الوكيل
رسالة عن الوطنية القاهرة ديسمبر ١٩٥١
- عز الدين فراج
- مصر مقبرة الغزاة (سلسلة كفاح شعب مصر) مكتبة الانجلو المصرية القاهرة يوليو ١٩٦٩
- رجب البنا
تاريخ ليس للبيع الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٨
- مصر فى عصر محمد على (إصلاح إم تحديث) تحرير رءووف عباس المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٠ م
- ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور ١٥٠ عاماً على رحيل محمد على باشا الكبير ٩ - ١١ - مارس ١٩٩٩
- عمر الاسكندرى
العهد العثمانى القاهرة ١٩١٦
- عبد الرحمن زكى
مصر الظافرة القاهرة ١٩٤٦
- صلاح أحمد هريدى
دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر
- محمد كمال يحيى
الغزو الفرنسى لمصر فى ضوء الوثائق التركية المؤرخ المصرى العدد ٥ يناير ١٩٩٠ جامعة القاهرة كلية الأداب قسم تاريخ.

المؤلف فى سطور

الإسم / أ . د . محمود متولى

- المهنـة / أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعـة قناة السويس كلية التربية ببورسعيد .

❖ **المؤهلات :-**

- ليسانس أداب جامعة عين شمس
- ليسانس حقوق جامعة القاهرة
- ماجستير فى التاريخ الحديث والمعاصر بدرجة الإمتياز
- دكتوراة فى التاريخ الحديث والمعاصر بمرتبة الشرف الأولى
- دبلوم معهد الرأى العام والاعلام بمرتبة الشرف .
- دبلوم معهد السياحة العالى بتقدير جيد جداً .

❖ **الوظائف التى شغلها :**

- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة أسيوط .
- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة المنيا .
- وكيل كلية الآداب للدراسات العليا جامعة المنيا .
- عميد كلية التربية ببور سعيد جامعة قناة السويس لدورتين متتاليتين .
- عميد كلية التربية بصلالة –سلطنة عمان .
- أستاذ زائر بالجامعات العربية والأوربية .

❖ **الأنشطة العلمية :**

- حاصل على وسام التاريخ العربى من اتحاد المؤرخين العرب ببغداد .
- حاصل على وسام التاريخ العربى من اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
- مؤلـف لأكثر مـن سبعين كتـابا فـى مجالات التـاريخ والسياسـة والعلاقات الدولية .

عمـر مكـرم

- عضو لجنة ترقيات الأساتذة منذ أكثر من ربع قرن .
- حاصل على درجة الاستاذية منذ ٢٧ عاما .
- عضو لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو .
- حاصل على جائزة جامعة السوربون حول رسالة الدكتوراة الخاصة به والتى عنوانها : - " الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها وأثرها على المجتمع المصرى " .

❖ **من أهم مؤلفاته :**

- مصر وقضايا الاغتيالات السياسية .
- الحياة الحزبية والنيابية فى مصر قبل عام ١٩٥٢ .
- غد بلا إرهاب .
- طغاة التاريخ .
- المذاهب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
- سلطان العدل والأمل .
- اسرائيل الحقيقة والمستقبل
- تاريخ أوربا المعاصرة .
- إتفاقية رودس بين العرب واسرائيل .
- حقوق الإنسان الأهداف والآمال .
- طوائف العالم الإسلامى .
- دور مصر فى تحرير الجزائر .
- مستقبل الأمة العربية والأطماع الأجنبية .
- الإخوان المسلمون والعمل السياسى .
- أندونيسيا والكفاح من أجل الإستقلال .
- هتلر والنازية والحرب العالمية الثانية .
- مأساة العصر فى تاريخ مصر .
- محمود فهمى النقراشى ودوره فى السياسة المصرية .

- مصر والحركة الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية .
- الأمم المتحدة والسلام العالمى.
- تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى خلال الحرب العالمية الثانية .
- الفيلسوف الاقتصادى الراحل .
- الوحدة العربية الواقع والمستقبل .
- إسرائيل والقنبلة الذرية .
- أفريقيا فى العلاقات الدولية .
- العالم العربى فى ظل ٦ أكتوبر .
- الإعلام وحرية المجتمع .
- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها بمصر فى القرن الـ ١٩ .
- فلسفة البحث العلمى .
- الإنسان فى محيط الزمان .

❖ **أنشطة إبداعية :**

- عضو مؤسس لسيمنار التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة عين شمس .
- مؤسس المنتدى الفكرى لجامعة قناة السويس .
- مؤسس دورية التاريخ والمستقبل الصادرة عن جامعة المنيا .
- مؤسس دورية قضايا تاريخية الصادرة عن كلية تربية بورسعيد
- الأمين العام المساعد لإتحاد المؤرخين العرب ببغداد .
- رئيس مجلس إدارة المركزالمصرى للأبحاث والدراسات .
- له أكثر من خمسمائة مقال منشورة فى الدوريات العلمية والصحف .
- شارك فى مناقشة أكثر من مائة رسالة فى الجامعات المصرية .
- أشرف على أكثر من سبعين رسالة ماجستير وثلاثين رسالة دكتوراة .
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- عضو نقابة المحامين .

وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

سلسلة رواد الحركة الوطنية المصرية
القراءة للجميع
٢٠٠٨
(٢)
عمر مكرم

رئيس مجلس الإدارة
السفير / أيمن القفاص

إشراف عام
د. أحمد أبو الحسن

اشراف فنى عام
أحمد سلام

اشراف ومتابعة
عزة فؤاد على
داليا سامى

اشراف فنى
إيمان شوشه

الليزر
أشرف سلام
انتصار مراد
الهام صبحى
سحر سعيد
أمانى محمد فؤاد

مراجعة
علي محجوب
منار ابراهيم
اميرة حسن
هبة الرشيدى

الغلاف
مى رأفت

الإخراج الفنى
علاء العيسوى